

الفصل الثالث

الصنعة في النثر العباسي

١

النثر العباسي

تخلّفت الدولة العباسية دولة بني أمية ، واتخذت بغداد حاضرة لها تاركة شئون الحكم للفرس الذين قضوا قضاء مبرما على الأمويين ، وبذلك أصبحوا هم السادة الحقيقيين . فلم يعد العرب يتصدّرون مكان السيادة ، ولم تعد لهم أرستقراطيتهم كما كان شأنهم في العصر الأموي ، فقد إبعدها غالباً عن المناصب الكبرى في الإدارة والجيش ، وأصبحوا لا يستطيعون الدخول على الخليفة إلا إذا أذن لهم المولى من الفرس ، أمثال البرامكة وبني سهل ، ممن أمسكوا بزمام الأمور .

وبذلك عمت الروح الفارسية في الحياة العباسية ، حتى الخليفة نفسه لم يعد كأسلافه الأمويين يمثّل شيخاً كبيراً من شيوخ القبائل العربية ، بل أصبح خلفاً للملك الفرس الساسانيين ، فله وزراؤه وحجّابه وبلاطه ، وله نفس التقاليد الفارسية في التشريفات ، ويعيش معيشة مترفة ، وإذا كان أبو جعفر المنصور عُرف بالاعتدال في الاتصال بهذه الحياة الجديدة فإن من خلفوه أقبلوا عليها إقبالا شديدا .

وكان تقدم الفرس على العرب في شئون الحكم سبباً في اصطدام هائل بين العرب والمولى ، وسرعان ما ظهرت نزعة الشعوبية ^(١) ، إذ أخذ جماعة من علماء العجم وأدبائهم يطعنون في عرب الجاهلية لبعدهم عن أسباب الحضارة

(١) انظر الفصل الخامس بهذه النزعة في الجزء الأول من ضحى الإسلام .

والثقافة ، ووطنوا عليهم أيضاً في كل ما يتصل بهم من فضائل خلقية ومن خطابة وغير خطابة منوهين بفضائل الفرس وغيرهم من شعوب الحضارات القديمة وما اشتهرت به من عمارة وفنون وعلوم . واتخذ ذلك شكل نزاع ضخم ، فألفت كتب كثيرة في مثالب العرب ، وكتب أخرى كثيرة في فضائل الفرس وغيرهم . ومن أشهر هؤلاء الشعوبيين في العصر العباسي الأول أبو عبيدة معمر بن المثنى وأصله من يهود فارس ، وهو من أشهر العلماء في اللغة والأخبار ، وكان يتعصب للفرس على العرب ، فألف في فضائل الأولين كتاباً (١) ، أما الأخيرون فألف كتاباً في مثالبهم (٢) . وشركه في كتابة المثالب والتأليف فيها الهيثم بن عدى (٣) . ومن اشتهر بهذه النزعة سهل بن هرون ، كاتب البرامكة ثم أخذ أصحاب خزانة الحكمة للمأمون . ومنهم علان الشعوبي وكان ورّاقاً في خزانة المأمون ، وقد جمع في كتابه « حلبة المثالب » جملة المطاعن على القبائل العربية في زمن الجاهلية (٤) . ولم يقف أنصار العرب صامتين إزاء هذه النزعة ، فقد أخذوا يردون على أصحابها ، ومن أشهر من اضطلعوا بهذا الرد مدافعين عن العرب الجاحظ في فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين ، وصنع صنيعة ابن قتيبة في رسالة له سماها كتاب العرب (٥) .

ترجم الفرس كثيراً من تراثهم إلى العربية (٦) ، ومن أشهر من قاموا بهذا الصنيع عبد الله بن المقفع وآل نوبخت (٧) ، ويحيل إلى الإنسان أنه لم يبق أثر في اللغة البهلوية إلا ترجم إلى العربية سواء تعلق بتاريخ الساسانيين أو بأدابهم ، ومن ثمّ بالغ بعض المحدثين فيما كان للثقافة الفارسية من أثر في العقل العربي ،

- | | |
|--|---|
| (١) الفهرست ص ٧٩ - ٨٠ وراجع ترجمته في إنباء الرواة ٢٧٦/٣ . | والفهرست ١٥٣ . |
| (٢) انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (طبعة الخانجي) ص ١٩٣ . | (٥) انظر هذه الرسالة في كتاب رسائل البلغاء نشر كرد على . |
| (٣) الفهرست ص ١٤٥ ومعجم الأدباء ٣٠٩/١٩ . | (٦) انظر في ذلك الفصل الخاص بالثقافة الفارسية في الجزء الأول من ضحى الإسلام . |
| (٤) الأغاني (طبع الساسي) ١٥٠/١٢ . | (٧) انظر في النقلة من الفارسية إلى العربية الفهرست ٣٤١ وما بعدها . |

ومن الغلاة في ذلك إنيسترانسيف ، فقد أكبر في كتابه « الأثر الإيراني في الأدب الإسلامي » من شأن هذه الثقافة وتأثيرها في العرب معتمداً في ذلك على ما يحصيه ابن النديم في فهرسته من أسماء الكتب الفارسية المترجمة ، وهي كثيرة هناك كثرة غامرة ، إلا أن هذه الكثرة يجب أن نحذرنا ، فالمسألة مسألة كيف لا كم ، وربما كانت أهمية هذه الثقافة لا ترجع إلى ما تُرجم للفرس أنفسهم ، وإنما ترجع إلى ما ترجم إلى لغتهم عن غيرها ، فقد كانت وسيطاً مهماً في نقل كثير من آداب الهند ومعارفها مثل كتاب كليله ودمنة الذي نقله ابن المقفع ، وكذلك كانت وسيطاً في نقل بعض الكتب اليونانية مثل منطق أرسطو الذي ترجمه عبد الله بن المقفع ، أو ابنه (١) ، على أنه ينبغي أن نشير إلى أنه دخل عن طريق الترجمة من الفارسية كثير من تعاليم الفرس الدينية القديمة عند زرادشت وماني ومزدك ، بل ترجموا كتاب زرادشت المسمى أقستا كما ترجموا كتباً أخرى لماني ومزدك ، مما كان سبباً في ازدياد جماعة الزنادقة ، وكانوا يتظاهرون بالإسلام ويبطنون أديانهم المجوسية القديمة ، وكانت عين الدولة يقظة فأقام المهدي ديواناً خاصاً بمحاكمتهم ، وقتل ابن المقفع وكثيرون غيره . وقد انبرى علماء الكلام ، وخاصة المعتزلة يردون على هؤلاء الزنادقة وما زعموا من إثنائية ومذاهب دهرية .

ولا تقل أهمية الثقافة الهندية (٢) عن الثقافة الفارسية ، إذ ترجم العباسيون عنها كثيراً من الحكم والقصص ، ومن الفلك والرياضة والطب . وقد ترجم إبراهيم الفزاري للمنصور كتاب الفلك الهندي المعروف باسم « السند هند » يعاونه في ذلك بعض علماء من الهنود ، واجتلب يحيى بن خالد البرمكي مجموعة من أطبائهم إلى بغداد ، وأمرهم بنقل بعض كتب الطب الهندية ، ويظهر أنه كان هناك مترجمون كثيرون يحسنون النقل عن السنسكريتية ، وما نقلوه صحيفة في

(١) راجع التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (٢) انظر الفصل الخاص بهذه الثقافة في الجزء لعبد الرحمن بدوي ص ١٠١ وما بعدها .
الأول من ضحى الإسلام .

البلاغة احتفظ بها الجاحظ في بيانه^(١) ، ومن المؤكد أن كثيراً من تأملاتهم فيما بعد الطبيعة أخذ طريقه إلى العربية ، وكان له صداه الواسع في الصوفية الإسلامية . وقد لعبت نظريتهم في التناسخ وبعض مذاهبهم الدهرية مثل السُّمْنِيَّةِ دوراً هي الأخرى في نزعات الزندقة والإلحاد .

على أن هاتين الثقافتين الهندية والفارسية لا تقاسان في أهميتهما إلى الثقافة اليونانية^(٢) التي دخلت في العربية لهذا العصر ، وكانت ماثورة في مدارس جُنْدِيسَابُور والرُّها وحَرَّان ونَصَبِيِّين ، كما كانت ماثورة في الكنائس الشرقية والغربية ، وكان للسوريان الفضل الأول في نقل محتوياتها إلى العربية ، وبدأ ذلك منذ عصر المنصور ، إذ استدعى من جنديسابور أسرة بَخْتِيَشُوع ، ليتولى بعض أطبائها علاجه ، وجدَّتْ هذه الأسرة كما جدَّتْ غيرها من السوريان في ترجمة الفلسفة اليونانية ، وبلغت هذه الترجمة أوجها في عهد المأمون ، فقد اتخذ في قصره خزائن الحكمة وأخذ يضم إليها كنوز المعرفة العربية والأجنبية ، وشجَّع على النقل والترجمة ، وطلب من آسيا الصغرى ومن بيزنطة نفسها المصنفات اليونانية ، وفي عهده لمع اسم أبي يوسف يعقوب الكندي أول فلاسفة العرب المهمين وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم .

والذي لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخيلة التي نُقِلَتْ إلى العربية وسَّعَتْ طاقها ، بما اكتسبت من المعاني العقلية والفلسفية ، وقد أصبح النثر العربي نثر ثقافة متشعبة ، تمدها روافد كبيرة من إيران والهند واليونان ، وليس ذلك فحسب ، فقد أخذت تدخل في هذا النثر طرائق النظر الأجنبية وأساليب الأجانب في تفكيرهم ، والذي لا ريب فيه أيضاً أنه قام على هذا العمل نُخْبَةٌ من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها فإذا هم يستخدمون أسلوباً مولدًا جديدًا يحفظون فيه للعربية بصورتها النحوية والتركيبية . ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى إحسانهم في هذا الأسلوب إلا إذا لاحظنا أن

(١) البيان والتبيين ٩٢/١ وانظر زهر (٢) انظر الفصل الخاص بهذه الثقافة في الجزء الأول من ضحى الإسلام .

لغتنا لم يصبها أثناء ذلك شيء من الفساد ، فقد عملوا إلى تخصيص بعض ألفاظها للدلالة على المصطلحات الفلسفية والعلمية الجديدة ، وكان إذا اضطهرم معنى لفظ أجنبي إلى الاحتفاظ به عرَبَّوه ، كما حدث في أسماء كثير من النباتات والأحجار والعقاقير والأمراض وبعض أسماء الآلات أو أسماء بعض العلوم . وكانوا كثيراً ما يضيفون صيغاً جديدة ، ولكنهم لم يتعدوا بها عن تراكيب العربية . ومن يقرأ كتب ابن المقفع ، وهو من أوائل المترجمين يرى كيف استطاع أن يُضنى على أساليبه الطوابع العربية تامة كاملة .

وبذلك اتسعت لغة الصحراء ، وأصبحت لغة ثقافية ذات أسلوب مرن يستوعب كل ما لدى الأجانب من كنوز المعرفة ومذاهب الفلسفة مما كان له أثره في الأدب نثره وشعره ، كما كان له أثره في العلوم الإسلامية كعلم الكلام والفقه ، وحتى في علم اللغة نفسه وما اتصل به من علم النحو ، فقد وضع الخليل خطة أول معجم في العربية وهو «معجم العين» ورتبه على مخارج الحروف بالضبط كما يرتب الهنود حروف لغتهم . وكان يعرف علم الموسيقى ، وعلى هديه أو باستيحائه وضع عروض الشعر وموازينه . ولا ننسى المنطق اليوناني فصلته بالنحو العربي مقرر . ومعنى ذلك أن العلوم المنقولة أثرت في تلك العلوم اللغوية ، كما أثرت في جميع العلوم العربية الإسلامية الخالصة ، وليس من باب الاتفاق أن يأخذ فقهاء العراق بالقياس وأن يسموا بأصحاب الرأي . وقد أخذ المؤرخون يكتبون في التاريخ على ضوء ما قرأوا عند الأمم الأجنبية من كتاباته ، مما أتاح للطبرى أن يكتب موسوعته التاريخية الكبرى .

وعلى هذا النحو أصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع ، فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي ، والنثر الأدبي الخالص ، وكان في بعض صورته امتداداً للقديم ، وكان في بعضها الآخر مبتكراً لا عهد للعرب به ، على شاكلة ما هو معروف في كتابات سهل بن هرون والجاحظ . وظلت الخطابة مزدهرة في أوائل هذا العصر ، وإن كان قد أسرع الذبول إلى الخطابة الخفية ، إذ لم تعد القبائل تتقدمُ بوفورها على الخلفاء كما كان الشأن في عصر

بنى أمية . أما الخطابة السيامية فظلت فترة نشيطة ، بحكم دعوة بنى العباس لأنفسهم ، حتى إذا استقام لهم الأمر أصابها ما أصاب الخطابة الخفلية من الذبول ، ومن خطابهم المفوهين أبو العباس السفاح والمنصور والمهدى والرشيدي والمأمون^(١) . ثم غلبت العجمه على خلفائهم ، فلم يعودوا يخطبون في أيام الجمع والأعياد إلا ما كان من الخليفة المهتدي^(٢) (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) وفي أخبار الرشيدي أنه عهد إلى الأصمعي أن يحفظ ابنه الأمين خطبة يخطب بها الناس في يوم الجمعة^(٣) . أما خطابة الوعاظ فيظهر أنه ظل لها غير قليل من الازدهار ، فقد كان خلفاء بنى العباس يستنون بخلفاء بنى أمية في استقبال كثيرين منهم ، وكان المنصور خاصة يوسع لهم في مجالسه ، وفي كتب الأدب أطراف من تلك المواعظ ، يُنسب بعضها إلى شبيب بن شيبة^(٤) ، وبعض آخر ينسب إلى عمرو بن عبيد^(٥) أو إلى الأوزاعي^(٦) أو إلى غيرهم .

وكان المهدي مثل أبيه يستدعي هؤلاء الوعاظ ويستمع إليهم ، ويروى أن صالح بن عبد الجليل وعظه يوماً حتى سالت دموعه^(٧) ، وكان الرشيدي يقتدى به ، فكان يعظه ابن السماك^(٨) وغيره . وروى ابن قتيبة في عيون الأخبار وابن عبد ربه في العقد الفريد كثيراً من كلام هؤلاء الوعاظ . وكان وراءهم كثير من القصاص الذين يقصون على الناس في المساجد الجامعة ، ومن أشهرهم موسى ابن سيار الأسوارى^(٩) وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه وتقعد الفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرهما للعرب

- | | |
|--|--------------------------------------|
| (١) انظر في خطبهم عيون الأخبار ٢/٢٥١ | (٥) عيون الأخبار ٢/٣٣٧ والمقد الفريد |
| والمقد الفريد ٤/٩٧ وراجع البيان والتبيين | ٣/١٦٤ وزهر الآداب ١/٩٤ . |
| ١/٣٣١ . | (٦) العقد الفريد ٣/١٦٣ وعيون الأخبار |
| (٢) مروج الذهب للمسعودي (طبعة باريس) | ٢/٣٣٨ . |
| ٨/٢ . | (٧) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ والمقد الفريد |
| (٣) الفرج بعد الشدة للتتويحي ٢/٢٠ . | ٣/١٥٨ . |
| (٤) البيان والتبيين ٢/١٩٨ . | (٨) العقد الفريد ٣/١٦٤ . |

بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدري بأى لسان هو أبين . ومنهم عمرو بن فائد الذى ظل يفسر القرآن الكريم للناس ستاً وثلاثين سنة ، وما ختمه حتى مات لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة فى عدة أسابيع . ومنهم القاسم بن يحيى الضرير الذى لم يكن فى القصاص مثله . ومنهم صالح المرى وكان صحيح الكلام شديد التأثير فى سامعيه^(١) .

واتسعت فى هذا العصر المناظرات الكلامية ، وحمل لواءها المعتزلة من أصحاب واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، ولم يكن همهم أن يردوا على مخالفهم من الجهمية أصحاب جَهْم بن صفوان الذى كان يقول بالجبر، والمرجئة الذين قالوا بأنه لا يجوز تكفير المسلم ولا الحكم على أعماله ، حتى لو ارتكب كبيرة . لم يكن همهم أن يردوا على هاتين الفرقتين فقط ، بل انصرف همهم إلى الرد على الدهرية والزنادقة ، ونراهم فى عصر المأمون يدعون إلى أن القرآن ليس أزلياً ، إنما هو مخلوق ، واستطاعوا أن يؤثروا فى المأمون حتى اعتنق فكرهم وأعلنها عقيدة رسمية للدولة ، وأخذ فى امتحان مَنْ يؤمنون بها فى آفاق دولته ، على نحو ما كان يمتحن جده المهديّ الناس فى عقيدة المانوية . وتبعه المعتصم فى تلك السيرة ، حتى إذا ولى المتوكل ترك الناس وشأنهم .

ولا نبالغ إذا قلنا إن المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة نهضوا بالنثر العباسى نهضة رائعة ، فقد كان المتكلم لا يحسن الكلام والاحتجاج لآرائه إلا إذا أخذ نفسه بثقافة فلسفية واسعة ، يقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذى يجمعهما^(٢) » ولم يكونوا يتفقون بالثقافة الفلسفية وحدها ، بل كانوا يتفقون أيضاً بكل ضروب الثقافات التى عُرِف لعصرهم ، حتى يجمعوا « التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ،

(١) انظر فى هؤلاء القصاص البيان والتبيين (٢) الحيوان ١٤٣/٢ .

٣٦٨/١ وما بعدها .

وأثار القول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، والحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة»^(١) . ويعترف الجاحظ بقيمة ذلك كله فيقول : « ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودوّنت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، ونحتنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قلبنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم لقد خَسَّ حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة . ولو بلخأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواتمنا ومنهتى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأي عقيماً ، والخطأ فاسداً ، ولكلّ الحدّ وتبلّد العقل»^(٢) .

والجاحظ المتكلم لا يعبر بهذا الكلام عن وجهة نظره وحده ، وإنما يعبر عن وجهة نظر المتكلمين جميعاً لعصره ، فقد انكبوا على قراءة الكتب المترجمة من الفلسفة وغير الفلسفة ، ففتقت عقولهم وفتحت لهم مسالك وأبواباً من الفِطْن وقد أقبلوا في شوق شديد على التشقّف بالإسلام وتعاليمه ، وباللغة العربية وكنوزها الثرية والشعرية . ويكفي أن يقرأ الإنسان «البيان والتبيين» للجاحظ وكذلك «الحيوان» ليقف على مدى ثقافته العربية . وهي في الكتاب الأخير تعانقها ثقافة عامة واسعة .

ولا نقرأ فيما خلفه هؤلاء المتكلمون حتى يبهرنا لستسّهم وقدرتهم على الحجاج والإقناع ، وقد كانت المناظرة في موضوع من الموضوعات تنعقد أحياناً بين اثنين منهم ، فتظل أياماً لا في أصول الدين ولا في الرد على الملحدين فحسب ، بل في كل موضوع يمكن أن يفد إلى أذهانهم . وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة انعقدت بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل ، وظلّ يورد أدلة كل منهما في صورة رائعة ، وهي صورة تدل دلالة بيّنة على مدى ما أصابه هؤلاء المتكلمون من تنويع لأفكارهم وتصحيح لمقدماتهم

(٢) الحيوان ١/٨٥ .

(١) الحيوان ١/٤٢ .

وتصريف لأساليبهم وألفاظهم . وإذا كانت القدرة البيانية بلغت بائتين منهم هذا المبلغ في مساوئ الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره ، فما بالك بما كان يجرى بينهم في مسائل الدين واستقصاء كل مسألة وجمع معانيها وترتيب أفكارها وألفاظها ؟ ومن يقرأ ما يرويه الجاحظ عن النظام في كتابه الحيوان يتعجب أشد العجب من استنباطه للمعاني والأدلة ، سواء تحدث في الحيوان أو في الرد على الدهرية والماتوية أو على خصومه من المتكلمين أو في بيان نظرياته في الروح والحواس والتولد والجسم والعرض والخير والشر والاستطاعة والكمون والتداخل والحركة والسكون . ويشيد به الجاحظ في غير موضع من حيوانه ، ومن قوله فيه وفي المتكلمين : « إنه لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل . . . ولولا أصحاب إبراهيم (النظام) وإبراهيم هلكت العوام من المعتزلة ، فإنه قد أنهج لهم سبلا ، وفتح لهم أمورا ، واختصر لهم أبوابا ، ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » (١) وقال في موضع آخر : « كان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزبغ . . . وإنما كان عييبه الذي لا يفارقه . . . جودة قياسه على العارض والخاص والسابق الذي لا يوثق بمثله » (٢) فهو يأخذ عليه أنه كان لا يصحح مقدمات القياس . وأكبر الظن أنه إنما كان يلجأ إلى ذلك حين تعوزه الحججة ، فكان يراوغ ويعتل ، حتى يشكك خصمه وسامعيه ، وكان يذهب هذا المذهب نفسه خاله أبو الهذيل العلاف ، وكان يقول : خمسون شكاً خير من يقين واحد (٣) أما النظام فكان يقول : لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولما قال أبو الجهم للمكي : أنا لا أكاد أشك قال المكي : وأنا لا أكاد أوقن ، وكانوا يقولون : « العوام أقل شكوكاً من الخواص » ، لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد ، وألقوا الحال الثالثة من الشك التي تشتمل على طبقاته » (٤) .

(١) الحيوان ٢٠٦/٤ .

(٣) الحيوان ٦٠/٣ .

(٢) الحيوان ٢٢٩/٢ .

(٤) الحيوان ٢٥/٦ وما بعدها .

لم يعد هناك شيء لا يقبل الشك والجدال في هذه البيئة التي استطاعت حقاً أن تمرن اللغة العربية على أداء معان لم تتعود أداءها ، وإنك لتقرأ كلامها فلا تشعر بأى تكلف أو شفقة أو التواء أو عُسْر ، فقد أصبحت اللغة طيبة على ألسنتهم ، وأصبحت مرنة مرونة عجيبة ، سواء تكلموا في مسائل فلسفية عويصة أو في مسائل كلامية دقيقة ، وتحس حقاً كأنهم بحار تندفق فلا تعثر ولا توقف . وقد وقف الجاحظ في البيان والتبيين يُشيد إشادة رائعة ببلاغتهم (١) ، وعرض لأحدهم ، وهو ثُمَامَة بن أَشْرَس فوصفه بقوله : « ما علمت أنه كان في زمانه قَرَوِيٌّ ولا بَلَدِيٌّ كان بلغ من حُسْن الإِفْهَام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المَخْرَج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه . وكان لفظه في وزن إشارته ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك ، وقال بعض الكُتَّاب : معاني ثُمَامَة الظاهرة في ألفاظه ، الواضحة في مخارج كلامه ، كما وصف الخُرَيْمِيُّ شِعْرَ نَفْسِهِ في مَدِيح أَبِي دُلَافٍ ، حيث يقول :

لَهُ كَلِمٌ فِيكَ مَعْقُولَةٌ إِزَاءَ الْقُلُوبِ كَرَكَبٍ وَتُوقِفٌ (٢)

وهذا الوصف الذي وصف به الجاحظ ثُمَامَة ينطبق على كل متكلم في عصره ، فقد مرّنوا على الجدال ومكايلة الألفاظ وموازنة المعاني وعرضها بمخففات حدودها ودقائقها ، والحوار فيها والجدال ومحاولة إقناع الخصم وإسكاتهم وبلغوا من ذلك كل مبلغ ، حتى سُمُّوا المتكلمين فهم أرباب الكلام وأصحابه الذين يعرفون كيف ينصبون أنفسهم للدفاع عن آرائهم ، وكيف يقدمون البراهين الواضحة والحجج الصحيحة .

واقراً في كتاب الحيوان للجاحظ فلن تجد موضوعاً إلا خاضوا فيه واستخرجوا منه معانيه ، حتى لتظن أنه لم يكن هناك أديب بارع إلا وتستهويه تلك الجماعة وتجذبه إلى ميادينها ، لبحث في الأسباب الكونية ومسبباتها والعلل ومعلولاتها ، ويدخل في صفوف هؤلاء الذين ملأوا قلوب الناس إعجاباً بمناظراتهم ومجادلاتهم

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١١ .

التي اتسعت لكل جوانب المعرفة ديناً وغير دين .

وقد دعتهم رغبتهم في إحكامهم لمناظراتهم ومناقشاتهم أن يبحثوا بحثاً واسعاً في بلاغة الكلام وكيف يبلغ المتكلم بكلامه الكفاية وغاية الحاجة ، بل كيف يروع السامعين ببيانه وحلاوة ألفاظه وحسن مخارج حروفه ، حتى تسكن القلوب إليه وتلج الصدور . ويزخر كتاب البيان والتبيين بوصاياهم التي كانوا يسوقونها إلى تلاميذهم في مجالسهم ، وكثيراً ما كانوا يدعون هؤلاء التلاميذ إلى المناظرة بين أيديهم ، ليمرّزوهم ويدّرّبوهم ، وليروا مقدار براعتهم ، وهم أثناء ذلك يبدون ملاحظات مختلفة على إشاراتهم وحركاتهم وأصواتهم وعلى ألفاظهم وأقوالهم وأساليبهم وعلى براهينهم وأدلتهم وأقيستهم وعللهم وما يداخل ذلك كله من فلتات خطأ وسقطات وهم . وبذلك كانوا أول من وضع قواعد البيان العربي ، وقد أخذوا أثناء هذا الوضع يحاولون الاطلاع على ما عند الأجانب من هذه القواعد ، يقول الجاحظ في بيانه : « قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليوناني ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومي ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندي ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند : جُمَاعُ البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك وأحق بالظفر »^(١) . ويقول الجاحظ إن معمرًا المتكلم قال لبهتلة الهندي ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهتلة عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأنتق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . ويتلقتي معمر بالصحيفة التراجمة فإذا فيها : « أول البلاغة اجتماع آله البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد

والاستعارة والكناية والالتفات وحسن الخروج والاعتراض وتأکید المدح بما يشبه
الدم والإيجاز والإطناب والاعتباس ، كل ذلك يدور فيهما ، وقد وقف الجاحظ
طويلاً في فاتحة البيان عند فصاحة الألفاظ وتنافر الحروف وصنوف اللثغة فيها .
فإذا قلنا إن هذه البيئة هي التي وضعت قواعد البلاغة والفصاحة لم نكن مبالغين ،
وإذا قلنا أيضاً إن هذه البيئة هي التي أتاحت للغة العربية مرونة الأساليب
على أداء المعاني الدقيقة لم نكن مغالين ، بل إننا نقول إنها هي التي وضعت
نماذج التعبير العباسي البليغ ، فقد كانت تنسج الألفاظ المتوعدة الوحشية عن
كلامها كما كانت تنسج الساقط السوقي ، فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على
الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة ، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقي
هو نفسه الذي لاحظناه قبلاً عند أسلافها من وعاظ العصر الأموي ، والذي
يكسو الكلام كسوة الأزواج والترادف الصوتي البديع .

وكان كبار الأدباء في القرن الثاني جميعه يتخذون هذا الأسلوب الفصيح
الوسط إمامهم ومثلهم ، سواء أكانوا مترجمين مثل ابن المقفع أم مدبجين لرسائل
أدبية طريفة مثل سهل بن هرون ، وقد بلغ القمة التي كانت تنتظره عند الجاحظ
المتكلم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دقيقة بين طرافة المعاني وإثارة الجمال
في نفس القارئ والسامع ، ولكن بدون كدٍّ ومجاهدة ، ولذلك نسلك أصحابه في
مذهب الصنعة ، فهم لا يبالبغون في تكلفهم ولا يستدعون الألفاظ من بعيد
ولا يدققون فيها كل التدقيق ولا يصفونها كل التصفية .

وبينما كان هذا المذهب قائماً عند المتكلمين وكبار الأدباء والمترجمين كانت
طلائع مذهب ثان من التصنيع والتجميل تأخذ طريقها في بيئة الكتّاب الرسميين
من أصحاب اللواوين ، فقد أخذوا يهذبون لغة رسائلهم السياسية غاية التهذيب ،
وما زالوا يبالبغون في أناقة تعبيرهم ودقة أدواقهم ، حتى انفصلوا انفصالاً تاماً عن
أسلوب الأزواج إلى أسلوب كله قطع زخرفية أنيقة ، أو بعبارة أخرى أسلوب
كله سجع وتنميق . وسنعرض لهذا المذهب في موضع آخر أما الآن فنُعنى
بأهم من نَحْنُ مذهب الصنعة في العصر العباسي بتأثير الثقافات الأجنبية الدخيلة ،

وهم ابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وكان أولهم مترجماً ، أما سهل والجاحظ فكانا أدبيين يعنيان بكتابة الرسائل والكتب الأدبية ، ولعلهما من أجل ذلك كانا يهتمان بفنهما وتجويد أساليبهما أكثر من اهتمام ابن المقفع، إذ كان اهتمامه ينصبُّ غالباً على ما يترجمه ونقل معانيه ، لا على طريقة الأداء والتجوير فيه.

٢

ابن المقفع : أصله وحياته وزندقته

ابن المقفع فارسي الأصل ، اسمه رُوْزْبَه (١) بن داؤدُويه ، كان أبوه من قرية تسمى جور (٢) من أعمال فارس على مقربة من شيراز . وانتقل إلى البصرة ، والتحق بديوان الخراج لعهد الحجاج ، فاحتجن (اختلس) مالا ، فضربه الحجاج حتى تقفعت (بيست) يده ، فلُقِّبَ بالمقفع (٣) ، ولم يسلم ، بل استمر مجوسياً مانوياً ، وعلى دينه نشأ ابنه روزبه ويظهر أنه عني بتأديبه كما عني بتعليمه العربية ، وساعده على ذلك أن ولاءهما كان في آل الأهم ، وهم يشتهرون بالفصاحة من قديم (٤) .

ولم يمض زمن كبير حتى ظهرت مخايل الفصاحة والبلاغة على ابن المقفع ، فكتب لعمر بن هبيرة في دواوينه على كرمان (٥) بفارس ، ثم كتب لابنه يزيد حين ولي العراق من قبيل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، كما كتب لأخيه داود (٦) . وجعلته وظيفته تلك يفيد أموالاً ، كان يبتر بها طائفة من أصدقائه ، يقول الجهشيارى : « وكان سريعاً سخياً ، يطعم الطعام ، ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يُجْرَى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٥٥ .

(١) الفهرست ص ١٧٢ .

(٥) الوزراء والكتاب ص ١٠٩ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٩ .

(٦) الفهرست ص ١٧٢ .

(٣) الفهرست ص ١٧٢ .

الخمسة إلى الألفين في كل شهر»^(١) .

ولما قامت الدولة العباسية كتب لعيسى بن علي عم المنصور^(٢) ، وعلى يديه أعلن إسلامه وتسمى باسم عبد الله واكنى بأبي محمد^(٣) ، ويقال إنه حين حاول إعلان إسلامه سأله عيسى أن يؤجل ذلك إلى الغد ، حتى يكون ذلك في حفل يحضره القواد والرؤساء ، ثم حضر طعامُ العشاء ، فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى أتصنع ذلك وأنت على عزم الإسلام؟ فقال : أكره أن أبيت على غير دين ! وظل يعمل في خدمة عيسى حتى قتله سفيان بن معاوية والى البصرة من قبل المنصور . وهنا يختلف الباحثون في سبب قتله ، فيزعم قوم أنه قُتل لزندقته ، ويؤكد الجهشيارى وكثير من المؤرخين أن السبب في قتله ما كان من تشدده في كتابة الأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي أخى عيسى وعم المنصور فإنه حين فشلت ثورته على ابن أخيه هرب منهزماً من أبي مسلم الخراسانى وقصد أخويه عيسى وسليمان بالبصرة ، فكاتبا المنصور في أن يؤمّنه ، ورضى بإعطائه الأمان ، فأمر عيسى ابن المقفع بعمل نسخة لهذا الأمان ، فعملها ووكّدها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها . . . وكان الذى شق على أبى جعفر ما جاء في أسفل الأمان من أنه إذا غدر بعمه عبد الله فهو نبي من أبيه ومولود لغير شدة ، وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعه وحربه والبراءة منه ، ولا بيعة له في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعته وإعانة من ناوأه من جميع الخلق ، وأنه إن فعل كان كافراً بجميع الأديان ، ونساؤه طوالق وعبيده أحرار . فغضب المنصور حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له : ابن المقفع ، فقال : أما أحد يكفنيه ؟ وكتب فيه إلى سفيان بن معاوية ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فاستغل الفرصة وطلبه ، فلما قدم عليه أمر بتسنُّور فسُجّر ، ثم أخذ يقطعه عضواً

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٩ .

ص ١٠٣ .

(٢) الفهرست ص ١٧٢ والوزراء والكتاب .

(٣) الفهرست ص ١٧٢ .

عضواً ويرى به في التنوير^(١) . وأكبر الظن أن هذا هو السبب الصحيح في مقتل ابن المقفع ، فالجاحظ يقول في بعض رسائله إنه أغرى عبد الله بن علي بالمنصور فقطن له ، وقُتل^(٢) ومن المحقق أن الجاحظ لا يريد بإغرائه سوى ما كان من كتابة أمانه على هذا النحو الذي ضيقت فيه على المنصور ، ويقول ابن خلكان إن ذلك كان عام ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٥ . ومعنى ذلك أنه لم يعش في الدولة العباسية إلا نحو عشر سنين .

وأشهر ابن المقفع بأنه كان زنديقاً ، وأنه إنما اتخذ الإسلام قناعاً لزندقته ومانويته ، ومن أكد ذلك أبو الفرج الأصبهاني^(٣) والبيروني^(٤) وابن خلكان^(٥) وصاحب خزانة الأدب^(٦) . ويقول المرتضى في أماليه : روى عن المهدي أنه قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع »^(٧) . ويقول المسعودي : « أمن المهدي في قتل الملحدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجم من الفارسية والهلوية إلى العربية »^(٨) . وفي الفهرست أنه ترجم كتاباً في سيرة مزدك^(٩) ، ويقال إنه مرّ بيت نار للمجوس بعد أن أسلم فلما رآه تمثل :

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتزلُّ حدَرَ العِدا وبك الفؤادُ موكلُ
إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأمئيلُ^(١٠)

ويقول بعض الرواة إنه عارض القرآن بزعمه^(١١) . ونشر ميكائيل أنجلو جويدى سنة ١٩٢٧ كتاباً يسمى : « كتاب الرد على الرنديق اللعين ابن المقفع -

-
- (١) الزوراء والكتاب ص ١٠٣ وما بعدها .
 (٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فتكل) ص ٤٧ .
 (٣) أغاني (طبعة الساسي) ٢٠٠/١٨ .
 (٤) تحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليجز) ص ٧٦ .
 (٥) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١٥٠/١ .
 (٦) خزانة الأدب للبغدادى ٤٩٥/٣ .
 (٧) أمال المرتضى ١٣٤/١ .
 (٨) مروج الذهب للمسعودي (طبعة مصر) ٢٤٢/٤ .
 (٩) الفهرست ص ١٧٢ .
 (١٠) أمال المرتضى ١٣٥/١ .
 (١١) إعجاز القرآن لبقلائي ص ١٨ .

عليه لعنة الله - للقاسم بن إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم « ونرى القاسم يندد - في مقدمة هذا الكتاب - بمذهب ماني وأتباعه ويقول إن ابن المقفع : خلّفه في إفكته وضلاله « فوضع كتاباً أعجمي البيان ، حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان ، فنال من عيب المرسلين ، واقترى الكذب على رب العالمين ، فرأينا من الحق أن نضع نقدّضه ، بعد أن وضعنا من قول ماني بعضه » . ثم يعرض القاسم فقراً من أقوال ابن المقفع ويردُّ عليها . وقد شك بعض الباحثين في هذا الكتاب ونسبة ما فيه من آراء لابن المقفع (١) ، غير أن ذلك لا ينقض زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن جاءوا بعدهم . ويروى أنه لما قُتل ابن أبي العوجاء لزندقته رثاه بقوله :

رُزْنَا أبا عمرو ولا حىّ مثله . فله ريب الحادثات بمن وقع
فإن تك قد فارقتنا وتركنا ذوى خلة ما في انسداد لها طمع
فقد جرّ نفعاً فقدنا لك أننا أمينا على كل الرزايا من الجزع

وقال أحمد بن يحيى ثعلب : البيت الأخير يدل على مذهبهم في أن الخير مزوج بالشر والشر مزوج بالخير (٢) .

وعلى الرغم من زندقة ابن المقفع وتعصبه الشديد لفارسيته لم يفكر في الرجوع إلى لغته ، بل اتخذ العربية مثله الأعلى ، وكان ذكياً ذكاء شديداً ، ولكن ذكائه أضلّه . وكان دقيق الحس ، فقد دعاه عيسى بن علي للغداء معه يوماً فقال له : « أعز الله الأمير ! لست يومى للكرام أكليلا ، فقال له : ولم ؟ قال : لأنى مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عيشة الأحرار » . وكتب إليه يحيى بن زياد الحارثى الزنديق يلتمس عقد الإخاء والاجتماع على المودة والصفاء فأخّر جوابه ، فكتب إليه كتاباً آخر ، يستره ، فكتب إليه ابن المقفع : « إن الإخاء ريقٌ ، فكرهت أن أملكك ريقى قبل أن أعرف حُسن مِلِكْتِكَ » (٣) .

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ٢٢٥/١ . (٢) انظر في هذا النص وسابقه أمالى المرتضى

. ١٣٦/١

(٢) أمالى المرتضى ١٣٥/١ .

صنعة ابن المقفع في كسبه ورسائله

رأينا ابن المقفع يعمل في دواوين الحكام والأمراء ، ولكن أهميته لا ترجع إلى أنه كان كاتباً من كتّاب الدواوين ، وإنما ترجع إلى أنه كان مترجماً عن البهلوية ، إذ حاول أن ينقل إلى اللغة العربية خير ما عرفه في لغته الفارسية سواء أكان ما عرفه فيها فارسياً خالصاً أم كان يونانياً أم كان هندياً .

أما الفارسي الخالص فنه ما يرد إلى تراث القوم الديني ، وقد ترجم منه كتاب مزدك^(١) ، ومنه ما يُردُّ إلى تراثهم التاريخي والأدبي ، وهو تراث كان يدور في أغلبه حول البلاط الإيراني وحوالياته وتقاليده ، ومن هذا التراث ترجم كتاب « خدای نامه » في سير ملوكهم ، وقد اعتمد الفردوسي على هذا الكتاب في تأليف ملحمة « الشهنامة » . وأيضاً ترجم كتاب « آيين نامه » وهو في أنظمة الملك والدولة الساسانية ، وقد بقيت منه مقتطفات كثيرة في عيون الأخبار لابن قتيبة تدل على أنه كان يعالج نظام القضاء وفنون الحرب ومكايدها . وترجم أيضاً كتاب التاج في سيرة أنوشروان ورسالة تنسر وكل هذه الكتب - على ما يظهر - كانت كتباً رسمية أصدرها البلاط الساساني .

وترجم بجانبها بعض ما نقل إلى لغته من التراث اليوناني ، إذ يقولون إنه ترجم لأرسطو المقولات^(٢) وبجانب ذلك نجده يترجم قصص كليلية ودمنة ، وهي قصص ترجع إلى أصول هندية . وقد عر هرتل (Hertel) على أحد أصول هذه القصص ، وهو كتاب « بَسَجَ تَانَسْتَرَا » الهندي كما عثر غيره على أصل آخر هو كتاب « هتو پادشا » ووجد الباحثون في « المهابهارتا »

(٢) الفهرست ص ٣٤٨ وطبقات الأطباء لابن

(١) انظر في الكتب الفارسية التي ترجمها

أبي أصيبعة (طبع المطبعة الوهيبية) ٣٠٨/١ .

ابن المقفع كتاب الفهرست ص ١٧٢ .

بعض أصول منه ^(١) . ويرجع بعض الباحثين أن ابن المقفع زاد على الكتاب فصولاً لم تكن في الأصل ، وكذلك زاد بعض القصص ، ويمكن أن تكون القصص الزيادة ليست من صنعه ، فقد تُرجم الكتاب بعده مرة أخرى وزيدت فيه بعض زيادات ^(٢) ، ومن المحقق أنه لم يزد سوى ما سماه غرّض الكتاب ، أما ما يزعمه البيروني من أنه زاد باب برزويه « قاصداً تشكيك ضَعْفَى العقائد في الدين وكَسَّرهم للدعوة إلى مذهب المنانية وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل » ^(٣) فغير صحيح ، إذ كان هذا الفصل موجوداً في الأصل الفارسي ^(٤) . على أن ما قاله البيروني يلفتنا إلى أن الفرس استخدموا الكتاب بعد نقله وقبل ترجمته إلى العربية في الدعوة لمذهب المانوية .

وليس ذلك كل ما نقله ابن المقفع عن البهلوية ، فله رسائل أخرى أشهرها الأدب الكبير والأدب الصغير واليتمة ورسالة الصحابة . ونراه يصرّح في مقدمة الأدب الكبير بقوله : « منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم (يريد القداماء) وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم . . . ومن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس » وكثيراً ما يقول في هذا الكتاب : « احفظ قول الحكيم » أو « قالت الحكماء » . ويقول في مقدمة الأدب الصغير : « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حرّوفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصقلها وتجليه أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » . فالكتّابان بشهادته مترجمان ، أو على الأقل تغلب الترجمة عليهما ، وقد دار أولهما على السياسة والصدّاقة ، ودار ثانيهما على الشيسم والأخلاق . وتدخّل في هذه المعاني القطع الباقية من اليتيمة ، التي احتفظ بها ابن طيفور في كتابه المنظوم والمثبور . فالكتب الثلاثة في رأينا مترجمة على الأقل في أكثرها ، وهي تصور ضرباً من

(١) انظر مقدمة كليلة ودمنة لعبد الوهاب (٢) نفس المقدمة ص ٤٢ .

عزام (طبعة دار المعارف) ص ٣٥ وما (٣) تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ص ٧٦ .

(٤) مقدمة كليلة ودمنة ص ٤٤ وما بعدها .

الأدب الأخلاقي نما في بلاط الساسانيين ، كان يرُوى عن بزرجمهر وغيره ، وكان يراد به تثقيف الفرس بحكمة عملية خلقية تستمد من تجارب الحياة وتكفل للإنسان أن يعيش في العالم سعيداً بعيداً عن المضار . وتدخّل في هذا الضرب من الأدب الأخلاقي رسالة الصحابة ، وهي لا تتصل بتعليم الناس كيف يعيشون ، وإنما تتصل بنظام الدولة ، فالصحابة في هذه الرسالة إنما يراد بهم صحابة الحكام والملوك أو كما نقول الآن حاشيتهم وجنودهم ورعيّتهم ، فهي تعرض لسياسة الدولة العامة ، وقد يكون ابن المقفع زاد عليها تطبيقاً لأحوال الرعية الإسلامية والدولة العباسية ، ولكنه على كل حال استمد في هذه الرسالة من أنظمة الملك الساسانية .

وعلى هذا النحو حمل ابن المقفع إلى العرب والعربية أروع ما أنتجته العبقريّة الإيرانية قبل الإسلام ، مما كان له أثر كبير في الآداب العباسية ، سواء منه ما اتصل بالأخلاق ، وما اتصل بتاريخ الساسانيين ومن سبقوهم من ملوك إيران ، وكذلك ما اتصل بأنظمة ملكهم وحكمهم للرعية . ولم يكنف بذلك فقد نقل أيضاً أجزاء من منطق أرسطو كما نقل قصص كليلة ودمنة ، وعنه نُقلت إلى السريانية والعبرانية واليونانية والفارسية الحديثة كما نقلت إلى اللغات الأوربية .

والطريف أنه حين قام بنقل هذا كله إلى لغتنا العربية لم تستعص عليه تلك اللغة ، بل أظهرت من المرونة ما استطاعت به أن تحمل هذا التراث كله ، ومن غير شك كانت كبرته إن لم يكن كله جديدة عليها بمعانيها ومدلولاتها التي لم يكن يعرفها عرب الصحراء ، ولا نريد أن نبالغ فنقول إن ابن المقفع أصاب التوفيق في كل ما ترجم ، إذ يظهر أن ترجمته لمنطق أرسطو أو لأجزائه لم تكن موفقة كل التوفيق ، ومن ثمّ حمل عليه الجاحظ في ترجمته لمعاني أرسطو (١) . ومن الحق أن ترجمة هذا المنطق لا تعدّ مقياساً عاماً لترجمته ، إذ كلنا نعرف صعوبة ترجمة الفلسفة ، فما بالنا إذا كانت هذه الترجمة تصاغ لأول مرة . وعلى

(١) الحيوان ١/٧٦ .

كل حال إذا كان التوفيق قد أخطأه في ترجمة أرسطو فإنه لزمه في ترجمة كليلة ودمنة وما ترجمه من تراث الأدب الفارسي .

وربما كانت حملة الجاحظ عليه في ترجمته لمنطق أرسطو هي التي دفعت طه حسين إلى حملته على أساليبه حملة عامة ، فذهب يقول إن « له عبارات من أجود ما نقرأ في العربية ، وبنوع خاص في الأدب الكبير وفي كليلة ودمنة ، ولكنه عندما يتناول المعاني الضيقة التي تحتاج إلى الدقة في التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة » ويشبّهه بالمستشرقين الذين يحسنون اللغة العربية فهماً ، وربما أعياهم الأداء فيها ، وينصح لطلاب الأدب أن يحاوطوا عندما يريدون أن يتخذوا ابن المقفع نموذجاً للتعبير والبلاغة ، ويسوق دليلاً على حكمه بعض أمثلة قليلة ، نلاحظ في تضاعيفها اضطراباً في الضمائر . وكأنما فاتته أن آثار ابن المقفع مضى عليها أكثر من ألف عام ، قبل أن تطبع ، كانت تتداولها فيها أيدي الناسخين الجانية ، وأن ما لاحظته ربما رجعت آفاته إلى أصناف هؤلاء الناسخين .

والحق أن طه حسين بالغ حين عدّه كأحد المستشرقين ، وهو قد نشأ في بيئة عربية وفي آل الأهم ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، وقد وجد في نفسه من قوة البيان ما جعله لإمام المترجمين في عصره ، وقد جعله صاحب الفهرست من البلغاء العشرة الذين قاموا على رأس أدباء العصر العباسي وكتابه^(١) ، وما زال القدماء يستشهدون بآرائه في الفصاحة والبلاغة ، من ذلك قول الجاحظ في بيانه^(٢) : « لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط ، سئيل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ ، والإيجاز هو البلاغة »^(٣) .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٥ .

(١) الفهرست ص ١٨٢ .

ويروى الجاحظ أن الكتاب الناشئين كانوا يدرسون آثاره ليتعلموا منها البيان ويصقلوا عقولهم وألسنتهم^(١) ، وقد سخرَ مرَّ السخرية من أحد هؤلاء الناشئين ، إذ رآه يتعرض لقول ابن المقفع في كليله ودمنة : « وكن كالنَّسر حوله الجَيْفُ ولا تكن كالجيف حولها النسور » ويقول : إنما كان ينبغي أن يقول بدلا من ذلك : « كن كالضرس حُفَّ بالثَّحْف ، ولا تكن كالهَبْرَة^(٢) تُطيف بها الأكلَة » . قال الجاحظ : وأظنه أراد الضروس ، فقال : الضرس ، وهذا من الاعتراض عجب^(٣) .

والحق أن ابن المقفع كان من البلاغة في الذروة ، ويكفي أنه استطاع أن ينقل أهم ما عرفه في لغته من تراث عقلي وتاريخي وفلسفي وأدبي إلى العربية مع الاحتفاظ لها بكيانها ومشخصاتها ، ومن غير شك عانى في سبيل ذلك كثيراً ، فقد خرج بما كان يترجم وينقل عن نطاق المعاني العربية السابقة إلى معان جديدة لم يسبق للغتنا أن أدتها ، وهي معان كانت تزدهم عليه وتتكاثر وتنوع ، ومع ذلك لم يستعص عليه التعبير عنها ، وقد كانت حرية أن تحدث عنده اضطراباً في التراكيب وأن تُدخِل في أساليبه صوراً من الرطانة الأعجمية ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد ظلت العربية عنده محتفظة بأصولها الأولى ومقوماتها الأساسية مع السلاسة والطلاوة . وقرأ له هذه الفقرة من كتاب الأدب الصغير^(٤) : « وسمعت العلماء قالوا لا عقل كاللديبر ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق ، ولا غنى كالرِّضا ، وأحقُّ ما صُبر عليه ما لا سبيل إلى تغييره ، وأفضلُ البرِّ الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال^(٥) ، ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون ، وطيب النفس حسنُ الانصراف عما لا سبيل إليه ، وليس في الدنيا سرور يعدل صحبة الإخوان ، ولا فيها غمُّ يعدل فقدهم . لا يتم حُسْنُ الكلام إلا بحسن العمل كالمرض الذي قد علم دواء نفسه ، فإذا هو

(١) ثلاث رسائل للجاحظ (نشر فينكل) (٤) انظر رسائل البلاغة لكرد على (الطبعة

الثالثة) ص ٣٥ .

ص ٤٢ .

(٥) الاسترسال : الائتناس والانبساط .

(٢) الهبرة : القطعة من اللحم .

(٣) الحيوان ٦/٣٣٠ .

لم يتداو به لم يُغنه علمه . والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذى يُهاب وإن كان عقيراً^(١) . والرجل الذى لا مروءة له وإن كثر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وإن طُوقَ وخُلخل^(٢) . ليحسُنْ تعاهدك نفسك بما تكون به للخير أهلاً ، فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك كما يطلب الماء السيلَ إلى الحدور .»

وذلك هو أسلوب ابن المقفع فيما بقى بين أيدينا من آثاره ، وهو أسلوب واضح شفاف ، ليس فيه تعقيد ولا إغراب ، وإنما فيه الاسترسال العذب ، وفيه الألفاظ القرية والعبارات المبسطة حسب الأغراض والمعانى التى كان ينقلها ، وكان ينفر نفوراً شديداً من الإغراب فى اللفظ والتوعُّر فيه ، وكان يقول لبعض من حوله : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العيب الأكبر » كما كان يقول : « عليك بما سهّل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السّفلة » وسئل ما البلاغة ؟ فقال : « التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها »^(٣) .

وابن المقفع بهذه الوصايا يضع بين أيدينا أسس أسلوبه ، وهو أسلوب جديد لا شك أنه كان من أوائل من ثبتوا حدوده ورسومه ، أسلوب يقوم على التوسط بين لغة الخاصة وما قد يكون فيها من إغراب فى اللفظ ولغة العامة وما قد يكون فيها من ابتذال . أسلوب عباسى مولّد ، يلائم فيه ابن المقفع بين حاجات عصره الثقافية وبين مقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية ، وكان يدفعه هذا الأسلوبُ دفعاً إلى أن يدرس الألفاظ ويختبرها ويقارن بينها ويفاضل ، حتى يظفر منها بما يستوفى معانيه من جهة ، وما يتيح لها ضرباً من البلاغة من جهة ثانية .

وأكبر الظن أننا لا نسرف فى القول حين نزعم أن ابن المقفع كان من أوائل من وطّدوا هذا الأسلوب العباسى المولد ، إن لم يكن أول من وطّده وخاصة

(١) عقيراً : جريجاً . (٢) انظر فى هذه النصوص أمالى المرتضى

(٣) طوق وخلخل : لبس الطوق والخلخال . ١٣٧/١ .

في ميدان الترجمة ، وهذا أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة ، وكان يعتمد فيه إلى الإيجاز فالمعاني تؤدي بأقل الألفاظ دون أن تقتصر عنها ودون أن تطول طولاً يُجحف بحقوقها ، ولعل ذلك هو الذي جعله يعدل عن أسلوب السجع وكذلك عن أسلوب الترادف الصوتي الذي سبق أن لاحظناه عند الوعاظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يهتم بالجمال المادي بتاتاً ، وإنما معناه أنه كان مترجماً ، وكان يسعى إلى الدقة في الترجمة ، فلم يتوسّع في رصف الألفاظ وبسطها ، حتى لا تخونه في أداء معانيه . لقد كانت غايته أن يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول ، ومع ذلك لم ينسأ أبداً أن يكون لفظه جزلاً رصيناً مصقولاً ، وأن ينسقه في حركاته وأوضاعه تنسيقاً ميبناً ، لا يخفى أي شيء مما يحمله معنى أو صورة . وقد ظلت القرون التالية إلى قرننا الحاضر تتداول كثيراً مما ترجمه ، وخاصة كليله ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير . وهذا الصمودُ للتداول الطويل مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللفظ الرشيق .

٤

سهل بن هرون : أصله وحياته وثقافته

إذا تركنا عصر ابن المقفع وتقدمنا إلى عصر هرون الرشيد التقينا بسهل ابن هرون ، وهو فارسي من دَسْتَمِيسَان^(١) ، كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، ويعين الحضرى القرية التي ولد فيها ، فيقول إنها ميسان^(٢) ، واختلف الرواة في اسم جده ، فهو في الفهرست رامنوى أو راهبون ، وهو في البيان والتبيين راهبوني^(٣) . وهو مثل ابن المقفع لا يُعرف بالضبط متى كان مولده ، أما وفاته فكانت في عام ٢١٥ للهجرة^(٤) . وقد ترك موطنه أول الأمر إلى البصرة حيث

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ١٧٤ . (٢) البيان والتبيين ١/٥٢ .
(٣) زهر الآداب ٢/٢٥٨ . (٤) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١١/٢٦٧ .

تخرّج فيها ، ثم انتقل إلى بغداد ، فكتب ليحيى بن خالد البرمكي ، وله أشعار في مديحه^(١) ، ويقال إنه خلفه على الدواوين^(٢) ، ويظهر أنه ظل يشتغل فيها لعهد الأمين^(٣) . ولما ولي المأمون الخلافة قدّمه إليه الفضل بن سهل فأعجب به ، وجعله خازناً بدار الحكمة^(٤) ، وظل بها إلى أن توفى .

ودلائل كثيرة تدل على أنه كان مثقفاً ثقافة ممتازة بجميع معارف عصره ، وأنه كان أحد النقلة من لسانه الفارسي إلى العربية^(٥) ، ولكن أهميته لا ترجع إلى ما ترجم ، بل ترجع إلى ما صنّف وألّف ، ومن أجل ذلك كان يختلف عن ابن المقفع ، فابن المقفع أهميته الأولى في تاريخ النثر العربي إنما ترجع إلى أنه كان مترجماً وأنه مرّن أساليب العربية على حمّلت الثقافات الأجنبية ، أما سهل فكان أديباً تبدو شخصيته فيما يؤلف ويدبج ويحبر .

ويُجمع من ترجموا لسهل على أنه كان شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، ويقول صاحب الفهرست إن له في ذلك كتباً كثيرة^(٦) . وعلى نحو ما اشتهر بالشعوبية اشتهر بالحكمة ، حتى لقبوه « بزجمهر الإسلام »^(٧) ووصفه الجاحظ فقال : « كان سهلاً سهلاً في نفسه ، عتيق^(٨) الوجه ، حسن الشّارة ، بعيداً من الفدامة^(٩) ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبيل قبل التكشف »^(١٠) . ويلاحظ ابن النديم أن الجاحظ كان يفضّله ، ويصف براعته وفصاحته ويحكى عنه في كتبه^(١١) ، وقد صرح مراراً بأنه كان يلقاه^(١٢) ، وروى كثيراً من نوادره ، فن

- | | |
|--|--|
| (١) الحيوان ٤٦٦/٣ ، ٦٠٣/٥ والبيان والتبيين ٣٥٢/٣ . | (٧) زهر الآداب ٢٥٨/٢ وشرح العميون (طبعة المطبعة الوطنية) ص ١٣٢ . |
| (٢) شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (طبعة دوزي) ص ٢٤٣ وما بعدها . | (٨) عتيق الوجه : جميل . |
| (٣) البيان والتبيين ٣٤٦/١ . | (٩) الفدامة : المي . |
| (٤) معجم الأدباء ٢٦٧/١١ . | (١٠) البيان والتبيين ٨٩/١ . |
| (٥) البيان والتبيين ٢٩/٣ . | (١١) الفهرست ص ١٧٤ . |
| (٦) الفهرست ص ١٧٤ . | (١٢) البيان والتبيين ٢٣٨/١ والحيوان ٢٠٢/٧ . |

ذلك أنه تندر على أحد جيرانه ، وهو صغير يختلف إلى الكتاب ، فقال :
 نُبِّيتُ بِبَعْلِكَ مَبْطُونًا فَرِغْتَ لَهُ فهل تماثل أو نأتيك عوآدا (١)

ويدل هذا على أنه كانت فيه نزعة إلى الفكاهة منذ حداثة ، وتُرَوَى له في ذلك طرائف كثيرة ، منها أن رجلا لقيه فقال له : هب لي ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخي ؟ قال : درهم ، قال سهل : « لقد هَوَّنتَ الدرهم ، وهو طائعُ الله في أرضه لا يَعْصِي ، وهو عَشْرُ العشرة ، والعشرة عَشْرُ المائة ، والمائة عَشْرُ الألف والألف دِيَّةُ المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هَوَّنته ؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم » (٢) وقال دعبل الشاعر :
 « أقمنا عند سهل بن هرون ، فلم نَبْرَحْ ، حتى كدنا نموت من الجوع ، فلما اضطررنا ، قال : يا غلام ! ويلك غَدْنَا ! قال : فأتينا بقصعة (بصفحة) فيها مرق ، فيه لحم ديك هرم ، ليس قبلها ولا بعدها غيرها ، لانحز في السكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطلع في القصعة وقلَّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلَّب جميع ما في القصعة ، حتى فقد الرأس من الديك ، فبقى مُطْرَقًا ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين الرأس ؟ فقال : رميت به . قال سهل : ولم رميت به ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولأى شيء ظننت أني لا آكله ؟ فوالله إنى لأمقتُ من يرى برجليه ، فكيف من يرى برأسه ؟ ثم قال له : لو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة (التشاوم) والفأل لكرهته ، الرأس رئيس ، وفيه الحواس (الخمس) ، ومنه يصبح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذي يتبرك به ، وعينه التي يُضْرَبُ بها المثل ، يقال : شراب كعين الديك (في الصفاء) ودماغه عجيب لوجع الكليسة ، ولم أر عظمًا قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه . فهلا إذ ظننت أني لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلِكَ أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله . أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ، انظر أين هو ، قال :

(٢) شرح العيون ص ١٢٣ .

(١) الحيوان ٦٦/٣ .

والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال : لكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، واللهُ حَسِيْبُكَ»^(١) . ويُرْوَى أن أبا الهذيل العلاف المتكلم المعروف طلب إليه رقعة إلى الحسن بن سهل يوصيه به ، فكتب له كتاباً ، وذهب به إلى الحسن ، فلما فَصَّه أغربَ فى الضحك ، إذ وجد فيه هذه الآيات :

إن الضميرَ — إذا سألتُك حاجةً لأبى الهذيل خلافُ ما أُبْدى
فامْنَحْه روحَ اليأسِ ثم امدُدْ له حبيلُ الرجاءِ بمخلفِ الوعدِ
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّه وعنائه فاجبِهْهُ بالردِّ
وإن استطعتْ له المضرةُ فاجتهدِ فيما يضرُّ بأبلغِ الجهدِ

فلما راجعه أبو الهذيل قال له : أين عزَّبَ عنك الفهم؟ أما سمعت قولى :
إن الضميرِ خلاف ما أبدى؟ فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا»^(٢) . وقالوا
إن المأمون انحرف عنه ، فدخل عليه يوماً ، وقال : يا أمير المؤمنين ! إنك
ظلمتني وظلمت فلاناً الكاتب ، فقال له : وبيك وكيف؟ قال : رفعته فوق
قدره ، ووضعني دون قدرى ، إلا أنك له فى ذلك أشد ظلماً ، قال : كيف؟
قال : لأنك أقمته مقام هُزُرِي وأقمتني مقام رحمة ، فضحك المأمون ، وقال له :
قاتلك الله ! ما أهجأك !»^(٣) . وقصَّوا عنه أنه خاطب بعض الأمراء ، فقال له :
كذبت ، فقال : أيها الأمير ! إن وجه الكذاب لا يقابلك — يعنى الأمير
بذلك — لأن وجه الإنسان لا يقابله^(٤) .

وكل هذه الأحاديث والنوادر المروية عن سهل تدل على ذكائه وفطنته
وخفة روحه ، وصدق الجاحظ إذ يقول إنه كان سهلاً فى نفسه تحكماً له برقة
الذهن ودقته ، فهو فكاهة وهو لاسين شديد العارضة . وفى لهجة لسانه وأسلوب منطقته
ما يجعلنا نحس الصلة الشديدة بينه وبين الجاحظ ، إذ يعد امتداداً — من
بعض الوجوه — لهذا اللسان ونمواً لهذا العقل وما طوى فيه من حجاج وجدل .

(١) الحيوان ٢/٣٧٤ وانظر سرح العيون (٣) نفس المصدر ص ١٣٤ .

(٢) سرح العيون ص ١٣٣ .

(٣) سرح العيون ص ١٣٤ .

(٤) سرح العيون ص ١٣٤ .

صنعة سهل في رسائله وكتبه

كان سهل خطيباً كاتباً شاعراً^(١) يقول الجاحظ: «ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسيَر الحسان المدونة والأخبار المولدة سهل بن هرون بن راهبوني الكاتب، صاحب كتاب ثعالة وعفراء في معارضة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الإخوان^(٢)، وكتاب المسائل^(٣)، وكتاب الخزومي والمهذلية، وغير ذلك من الكتب^(٤). ومن كتبه التي ذكرها ابن النديم كتاب النمر والثعلب، وكتاب الوامق والعذراء، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الغزاليين، وكتاب إلى عيسى بن أبان في القضاء، وكتاب تدبير الملك والسياسة^(٥).

ويدل الكتابان الأخيران على أنه عُنِيَ - مثل ابن المقفع - بالكتابة في شئون الحكم والسياسة، ولعل أهم هذه الكتب جميعاً كتاب ثعالة وعفراء الذي ألفه فصولاً في قصص الحيوان معارضة لكتاب كليلة ودمنة، ولم يصلنا هذا الكتاب إنما وصلتنا فقرة منه في كتاب زهر الآداب للحمصى، وهي حكمة تمضى على هذا النمط:

«اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذى تجودون به من تفضلكم، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهرٌ على وهن العقيدة وتقصير الروية، مضرٌ بالتدبير مخلٌ بالاختيار، وليس في نفعٍ تُحمَدُ به عوضٌ من

(١) انظر في أشعاره زهر الآداب ٢/٢٥٨ - ٢٥٩ والبيان والتبيين ١/١٩٦، ٣/٣٥٢ والحيوان ٣/٤٦٦، ٥/٦٠٣ - ٦٠٤.
 (٢) البيان والتبيين ١/٥٢.
 (٣) انظر الفهرست ص ١٧٤.
 (٤) انظر الفهرست ص ١٧٤.
 (٥) انظر الفهرست ص ١٧٤.

فساد المروعة ولزوم التقيصة » ويقول الحصرى عقب هذه الفقرة : وكتابه هذا مملوء حِكْمًا وعِلْمًا^(١) .

ويُكبر الجاحظ دائماً من بلاغة سهل وفصاحته ، ويظهر أنه أهم كاتب ظهر خلال القرن الثاني الهجري ، يقول صاحب سرح العيون : « انفراد سهل في زمانه بالبلاغة والحكمة وصنّف الكتب معارضاً بها كتب الأوائل »^(٢) ويقول الجاحظ : إنه كان في أول أمره إذا ألف كتاباً طعن الناس عليه ، فكان ينسب ما يؤلفه إلى من عرفوا بالتأليف مثل سهل ، فيشيع الكتاب ويحمله الناس مع الحمد والثناء^(٣) .

وإذا ذهبنا نتعقب آثار سهل كى نحكم حكماً دقيقاً على صناعته وفنه في كتبه ورسائله لم نجد إلا بقية ضئيلة من هذا المجهود الضخم الذى وصفه الجاحظ وابن النديم وأمثالهما ، ولولا أن الجاحظ احتفظ لنا في كتابي البخلاء والبيان والتبيين بأطراف من عمله ما استطعنا أن نصدر حكماً دقيقاً على صياغته ولا على صناعته ، ولعل أهم ما سجله الجاحظ له رسالته التى استفتح بها كتاب البخلاء ، وفيها نرى سهلاً يحتج للبخل احتجاجاً فيه حوار الجاحظ وجدله ، وفيه أيضاً فصاحته ولسننه ، بحيث يختلط الأمر على الناظر في هذه الرسالة ، فيخيل إليه أنها ربما كانت من صنْع الجاحظ وإنما نحلها سهلاً للمأرب في نفسه ، ولكن هذا الظن ينمحي إذا قرأنا ما بقي من نثر سهل في مواطن أخرى . ومن يرجع إلى الرسالة يجدها تدم الكرم وتزرى به ، بينما تمدح البخل وتثنى عليه ، وهو ثناء أراد به التعصب على العرب ودم صفة الكرم التى لهج شعراؤهم بذكرها ومدح ما يضادها من الشح والبخل ، ويقال إنه أرسل بها إلى الحسن بن سهل ليكافئه عليها فأجابه على ظهرها : « وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك ! وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام »^(٤) . وقد توجه بالرسالة في مفتتحها إلى

ص ٧٦ .

(١) زهر الآداب ٢/٢٥٨ .

(٤) الفهرست ص ١٧٤ .

(٢) سرح العيون ص ١٣٢ .

(٣) التنبيه والإشراف للمعوى (طبع ليدن)

بني عمه ، ويقول القدماء إنه يقصد بني عمه من آل راهبون ، وأكبر الظن أنه يقصد بهم جماعة العرب لا آل راهبون كما ظن القدماء ، وهو يستهلها على هذا النمط (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير وجعلكم من أهله ، قال الأحنف بن قيس : يا معشر بني تميم ! لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإنَّ أسرع الناس إلى القتال أقلُّهم حياءً من الفرار ، وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جَمَّة فتأمل عيَّاباً ، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من العيب ، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب ، وقبح أن تنهى عن مرشد أو تغرى بمشفق . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإلا لإصلاح فسادكم ، وإبقاء النعمة عليكم ، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم ، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون أننا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم . فما كان أحقكم في تقديم حرمتنا بكم أن ترعوا حق قَصْدنا بذلك إليكم ، وتنبهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قتمتم . »

وأظن أن صنعة سهل قد استبانَتْ لنا في هذه الأسطر القليلة ، إذ نراه يعنى في رسالته ببسط الأدلة ، وكأنه يتقدم حواراً عنيفاً ، فهو يدلى بأقيسة وقضايا وآثار مروية ، وليس هذا كل ما يميز صنعته التي تلمح فيها أثر المنطق وتعلم الجدل ، بل يميزها شيء آخر أهم من ذلك ، وهو ما يعتمد إليه من بسط العبارة بسطاً يظهر فيه التقطيع الصوتي والترادف الموسيقي ، واستمرَّ معه في الرسالة فسترى هذا العنصر في فنه وصياغته يتضح أكثر إذ يقول :

« عبتموني حين ختمت على سَدِّ (سَلِّ) عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رُطبة غريبة ، على عبد نهمٍ ، وصبي جشع ، وأمة لكععاء ، وزوجة

(١) انظر الرسالة بطولها في فاتحة كتاب

خرقاء . وليس من أصل الأدب ، ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات القادة ، ولا في تدبير السادة ، أن يستوى في نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن ، والأسباب من كل شكل ، التابع والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم في المجلس ، ومواقع أسمائهم في العنوانات وما يستقبلون به من التحيات وعبتموني بختصف (إصلاح) النعال ، وبتصدير القميص ، وحين زعمت أن المخصوصة أبقى ، وأوطأ وأوقى ، وأننى للكبير ، وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْتَصِفُ نَعْلَهُ ، ويرقع ثوبه ، ولقد لَفَّسَتْ سَعْدَى بنت عوف إزار طلحة وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض .

وما من ريب في أن صوت سهل قد اتضح لنا الآن بجميع خصائصه ، فهو يعمد إلى الجدل والدقة في الحوار كما يعمد إلى شيء طريف في أسلوبه ، إذ نرى الألفاظ تنوازن لكن لا في شكل سجع بل في شكل تقطيعات دقيقة ، وكأنى بسهل لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلفظ فصيح فقط كما كان يصنع ابن المقفع ، بل كان يعمد إلى ضروب من التوقيع الصوتي في اللفظ حتى تستقيم لأسلوبه فنون من الجمال المادى الذى يجلب سامعيه ، كى يؤثر في وجدانهم وعواطفهم ، بجانب ما يؤثر به في عقولهم من حجاجه وجدله والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره .

وهذا التقطيع الصوتي في أسلوب سهل اقترن به عنصر آخر في صناعته ، هو عنصر الترادف الذى أشرنا إليه ، وارجع إلى هذه القطعة التى روينها له فسترى كل معنى لا يؤدى أداء واحداً في عبارة واحدة ، بل يؤدى أداءين أو أكثر حتى يتم لسهل ما يريد من توقيع صوتي وتعادل موسيقى بين ألفاظه وعباراته ، وقد جرّه ذلك إلى ضروب من الترادف في تراكيبه ، ولكنه ترادف طريف أو قل بعبارة أدق إنه ترادف فنى فقد كان سهل يريد أن يؤدى به خصائص فنية بجانب ما يؤدى من خصائص ذهنية . وعلى هذا النحو كانت تندمج في أساليبه

خصائص موسيقية في خصائص أخرى عقلية نلمحها في هذا الجدل وهذا الحوار وما يبدو عليه من تلاوين عقلية أحدثتها الثقافة الفلسفية في تفكيره وأدائه لمعانيه ، وقد كان يعرف كيف يوازن بين هذه التلاوين العقلية وما سبقها من تلاوين موسيقية فتخرج أساليبه وقد التمت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق ، كما التفت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقى ، وسنرى هذه الشيات جميعاً تمتد تحت أعيننا في كل ما ديج الجاحظ وحبّره من كتب ورسائل ، وإنه ليتأثر في هذه النزعة سهلاً من طرف ، وبيئة المتكلمين الذين نشأ فيهم من طرف آخر ، وكأنما كان أسلوب العصر هو أسلوب الجدل والحوار . ولعل مما يشهد لذلك عند سهل ما يروى من أن شخصاً مدح الذهب فأطنب ، ثم قام النظام فذم الزجاج وأطنب ، فاعترضهما سهل يفضل الزجاج على الذهب في رسالة طويلة لم يبق لنا منها إلا هذه اللُمة^(١) :

« الزجاج مجلّو نورى ، والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن ، لا يُفْقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُثقل اليد ، ولا يرتفع في السّوم . واسم الذهب يتطير منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام ، وهو فاتن فانك (غالب) لمن صانه ، وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال الأحمران (الذهب والزعفران) . والزجاج لا يحمل الوضّر ، ولا يداخله الغمّر^(٢) ، ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شئء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب » .

ونحن لا نجد أى فارق بين هذه الطريقة في الحججاج وبين طريقة الجاحظ في حجاجه ، إذ كان يركب مثل هذا المركب في كل ما يكتب ويؤلف ، كأنه يريد أن يغرب عن الناس دائماً بتفكيره ، فهو يخرج على ما لوفهم ومعتادهم بأراء شاذة يسوقها في جدل عنيف . وقد رويت في البيان والتبيين لسهل قطعة في الخطابة والخطباء ، وهي من هذا اللون ، إذ نرى سهلاً فيها يفضل الخطيب قبيح السّمّت على الخطيب حسن السمت على هذا النحو^(٣) :

(٣) انظر البيان والتبيين ١/٨٩ .

(١) سرح العيون ص ١٣٥ .

(٢) الغمر : اللدم ، والوضر : صمغ .

« لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجبا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا ، بهيئا ، ذا لباس نبيلاً ، وذا حسب شريفاً . وكان الآخر قليلاً قميئاً ، وباذاً الهيئة دميماً ، وخامل الذكر مجهولاً ، ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجسمع ، وعامتهم تقضى للقليل الدميم ، على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجب منه سبباً للتعجب به ، ولكان الإكثار من شأنه علة للإكثار في مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أياس ، ومن حسده أبعده ، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ما قدره ، تضاعف حسن كلامه في صدورهم ، وكبر في عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعده في الوهم ، وكلما كان أبعده في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبعده ، وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان ، ومسلح المجانين ، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم به أكثر ، والناس موكلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البديع ، وليس لهم في الموجود الراهن المقيم ، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذى لهم في الغريب القليل ، وفي النادر الشاذ ، وكل ما كان في ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد البخيران في عالمهم ، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعم نفعاً ، وأكثر في وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مثونة وأكثر فائدة ، ولذلك قدم بعض الناس الخارجى على العريق (١) ، والطارف على التلبد ، وكان يقول : إذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين : إما رجلاً يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل ، والإكبار والتبجيل ، على قدر حالهما في نفسه ، وموقعهما من قلبه ، وإما رجلاً تعرض له التهمة لنفسه فيما ، والخوف من أن يكون

(١) الخارجى : يخرج ويشرف بنفسه

من غير أن يكون له قدم .

تعظيمه لهما ، يومه من صواب قوهما ، وبلاغة كلامهما ما ليس عندهما ، حتى يفرط في الإشفاق ، ويسرف في التهمة ، فالأول يزيد في حقهما للذي لهما في نفسه ، والآخر ينقصهما من حقه لتهمته لنفسه . وإذا كان الحب يعنى عن المساوي فالبغض يعنى عن المحاسن ، وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ومحصل حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلا القوى المُنْتَهية ، والوثيق العُقْدَة ، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكبر .

وأنت ترى في هذه القطعة المجموعتين من التلاوين العقلية والصوتية تلتقيان في أسلوب سهل في غير مشقة ولا تكلف ، إذ تندمج في صياغته القدرة على التحليل والتعليل بالقدرة على صوغ اللفظ وتوجيهه والاتساع به حتى يؤدي ضرورياً من التوقيع الصوتي والترادف الموسيقي ، وما من شك في أن ذلك كله كان خطوة نحو أسلوب الجاحظ الذي ستره ينهض بهوضاً واسعاً بالطرفين من التلاوين العقلية والصوتية . ومهما يكن فقد كان سهل يوفّر لألفاظه ومعانيه عناية واسعة ، وهي عناية جعلته أحد بلغاء عصره في صنع الرسائل الطويلة وتوجيهها ، إذ كان ما يزال يَحْتال على الرسالة من رسائله بتلاوينه العقلية وتحاسينه الصوتية ، فلذا هي تستوى في صورة بديعة من الفن والصناعة ، والجمال والطلاوة .

٦

الجاحظ : نشأته وثقافته وحياته

يوضع الجاحظ على رأس كتّاب العصر العباسي غير مدافع ولا منازع ، وهو يرجع - فيما يظهر - إلى أصل غير عربي^(١) ، وولد في البصرة حول عام ١٥٩ هـ ونشأ فيها نشأة متواضعة إذ يزعم الرواة أنه نشأ يبيع الخبز والسّمك بسَيْحان^(٢)

(١) ذرّة الألباق طبقات الأدب لابن الأثير الأديباء لياقوت ٧٤/١٦ .

ص ٢٥٤ وانظر أمالي المرتضى ١٩٤/١ ومعجم (٢) معجم الأديباء ٧٤/١٦ .

أحد أنهار بلدته ، وهذا هو كل ما لدينا عن نشأته وحدثاته ، على أننا لا نمضي معه في حياته حتى نراه يترك نهر سيحان إلى أنهار الثقافة في عصره فهو يغدو على الميربند يسمع من الأعراب الفصحاء ، ويختلف إلى حلقات العلماء في المسجد الجامع ، يأخذ عن علماء اللغة وغيرهم ، وكانت أهم حلقة تعجبه حلقة المتكلمين وأقبل على قراءة كل ما تُرجم من الثقافات الأجنبية ، ويقصون عن شغفه بالقراءة قصصاً كثيرة ، فهم يقولون إنه كان لا يقع في يده كتاب إلا ويقراه من أوله إلى آخره^(١) ، ويروى صاحب الفهرست أنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر^(٢) .

وهذا العكوف على القراءة هو الذي جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف ، فليس هناك جدول من جداول الثقافة في عصره إلا وتسربت منه فروع ومنعطفات إلى كتاباته وتأليفاته ، وإن كتبه من هذه الناحية لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة ، فأنت منذ دخولك في فواتح هذه المعارض ، تلتقي صناعات مختلفة من كل جنس ، وكذلك أنت منذ دخولك في كتب الجاحظ تجده يعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التي عاصرتها من هندية وفارسية ويونانية وعربية ، وهو يجمع ذلك في شكل مشعّث إذ بينما تراه يتحدث إليك عن حديث شريف أو آية قرآنية ، إذ هو يتحدث عن حكمة يونانية ، وبينما يتحدث عن زرادشت والمناوية ، إذ هو يتحدث عن الإسلام والنبوة ، وبينما يتحدث عن العرب وشعرهم إذ هو يتحدث عن نظرية الكمون عند المعتزلة أو عن نظريته في أن المعارف طباع ، وحتى هو إن كتب في البيان عند العرب تجده يبحث لك عن رأى الهند واليونان والفرس في البلاغة .

وكان الجاحظ من المعتزلة ، وهو تلميذ النظام في اعتزاله^(٣) ، وأشاد به مراراً في حيوانه كما أشاد بغيره من المعتزلة أمثال بشر بن المعتمر وثمامة بن الأشريس وأبي الهنديّيلّ العلاّف وأضرابهم . وقد استطاع خلال اعتزاله أن ينفذ إلى تأليف

(١) أمالي المرتضى ١٩٤/١ .

٧٥/١٦ .

(٢) الفهرست ص ١٦٩ وانظر معجم الأدباء .

(٣) نزعة الألبا ص ٢٥٤ .

مجموعة من الآراء تعصبت لها طائفة من المعتزلة سميت باسم الجاحظية^(١)، ومهما يكن فقد كان الجاحظ من طائفة المعتزلة، وهي طائفة عرفت في هذا العصر بكثرة الجدل والحوار كما عرفت بسعة ثقافتها واتصالها بجميع ألوان المعارف لعصرها وخاصة المعارف اليونانية .

ولم يشتهر المعتزلة في العصر العباسي بجلم وثقافتهم فقط، بل اشتهروا بشيء مهم أيضاً وهو فصاحتهم وبلاغتهم حتى ليقول الجاحظ: «إن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء»^(٢). وقد وصفهم صاحب الانتصار فقال: «إن الكلام لم دون سواهم»^(٣). ويقول صاحب المقاييس: «إن طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشيء بالشيء والاعتماد على الجدل»^(٤). ويظهر أيضاً أنهم كانوا يعتمدون في جلم على الاستشهاد بالشعر، ويقول المرتضى عن أبي الهذيل العلاف: «كان يحفظ كثيراً من الشعر العربي ويستشهد به في مجالسه، قال المبرد: ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلام بثلاثمائة بيت»^(٥). وتوفي أبو الهذيل حوالي عام ٢٣٢هـ. وربما كان من تأثره ما نجده عند الجاحظ في كتبه من كثرة استشاده بالشعر، وقد يكونان هما جميعاً يتأثران بطريقة غيرها من المعتزلة في هذا الاستشهاد، بمعنى أنه استقر قبلهما عند أبناء مذهبهما .

ومهما يكن فقد لقي الجاحظ في بيئة المعتزلة الجدلة اللسنة فصاحته وبيانه متأثراً بكتابات عصره وخاصة كتابات سهل بن هرون الذي كان يشغف به كما لاحظ ابن النديم في فهرسته . ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى نجده وقد استوت له شهرة فائقة بين كتّاب عصره، ولعل ذلك ما جعل المأمون يطلب

(٣) الانتصار لابن الحياط (طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٢ .

(٤) المقاييس (طبع مصر) ص ٢٢٣ .

(٥) المنية والأمل ص ٢٦ .

(١) انظر الفرق بين الفرق لأبي منصور

البغدادي طبع مطبعة المعارف ص ١٦٠-١٦٢

حيث عرض الرد على الجاحظية وآرائها .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣٩ .

إليه أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها، ويقال إنه أقيم على ديوان الرسائل غير أنه لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام^(١) وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها فوجدناه يهجرها إلى داره وما عكف عليه من إدمان القراءة والتأليف، ويظهر أن كبراء الدولة كانوا يكفونوه حاجته فقد روى أن ابن الزيات أعطاه في كتاب الحيوان خمسة آلاف دينار وأعطاه ابن أبي دؤاد في البيان والتبيين خمسة آلاف دينار ثانية، كما أعطاه إبراهيم بن العباس الصولي خمسة آلاف ثلاثة في كتاب الزرع والنخل^(٢). أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل الذي صنف له رسالته في فضائل الترك فقد أجرى عليه راتباً شهرياً كان يتقاضاه من خزانة الدولة^(٣).

وعلى هذا كان الجاحظ يتصل بكبار رجال الدولة العباسية وكانوا يوادونه ويصادقونه، ويقال إنه كان صديقاً لابن الزيات مقرباً منه فلما قبض عليه وأودع في التندور فرّ الجاحظ هارباً خوفاً من أن يناله نفس عقابه، ولما قبض عليه وقُدّم إلى ابن أبي دؤاد عدو ابن الزيات لقيه لقاءً جافاً فاعترضه قائلاً: «خفّض عليك - أيدك الله! - فوالله لأن يكون لك الأمر على خيراً من أن يكون لي عليك، ولأن أسىء وتحسن أحسن في الأحدوثه من أن أحسن وتسىء، ولأن تغفوعني في حال قدرتك أجملُ بك من الانتقام مني، فعفا عنه^(٤) وعاد إلى البصرة يؤلف ويكتب هذه المصنفات والكتب التي كان يتعلق بها العامة والخاصة تعلقاً شديداً^(٥) وربما كان من أسباب ذلك ما امتاز به من ميل إلى التندر والدعابة حتى ليقول بن أبي دؤاد: «إني أثق بظرفه^(٦)». ويصف من جاءوا بعده كتبه فيقولون: إنها مكتوبة في ضروب من الجدل والهزل^(٧). ومن طُرف الجاحظ في ذلك أنه قال عن نفسه: نسبت كنتي

(١) معجم الأدباء، ٧٩/١٦.

(٢) انظر في ذلك نفس المصدر، ١٠٦/١٦.

(٣) انظر معجم الأدباء، ٩٩/١٦.

(٤) أمال المرتضى، ١٩٥/١ ومعجم الأدباء.

(٥) معجم الأدباء، ٧٦/١٦.

(٦) معجم الأدباء، ٩٨/١٦.

(٧) نزعة الألبا، ص ٢٥٨.

ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم: بم أكنّتي؟ فقالوا: بأبي عثمان^(١)، ويروى أنه حفظ رجلاً أعجمياً نسباً يدّعيه لنفسه في العرب فلما حفظه قال له: الآن لانتبه علينا فقال الرجل: سبحان الله! إن فعلت ذلك فأنا إذاً دعي^(٢). وهذا جانب واسع في الجاحظ ومن خير ما يصوره كتاب البخلاء وما رواه فيه من نوادرهم وفكاهاتهم.

والحق أن الجاحظ كان شخصية فكهة كما كان شخصية لسيّنة^(٣)، وقد عني بتأليف الكتب والرسائل، وأكثر من ذلك، حتى قالوا إنه ترك نيفاً ومائة وسبعين كتاباً، ومن يرجع إلى الثبت الطويل الذي كتبه في أول حيوانه عن مؤلفاته يندهش لكثرة ما ألف وكتب، ولعل ذلك هو أساس شهرته فقد طار اسمه في الآفاق حتى في عصره وزمنه. قصّ الرواة أنه قيل لأبي هفان: لم لا تهجو الجاحظ وقد ندّد بك وأخذ بمخنقك فقال: أمثلي يُخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت في ألف سنة^(٤)، ويروون أن أندلسياً قرأ في موطنه كتابيه (البيان والتبيين) و (التربيع والتدوير) فهاجر إليه يريد لقاءه، ويزعمون أن هذا الأندلسي قال في بعض حديثه كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكتنا بلقاء أبي عثمان^(٥).

ومن المحقق أن الجاحظ نال شهرة مدوية في عصره وبعده، إذ نجد النقاد والأدباء يلهجون دائماً بمدحه والثناء عليه حتى ليقولون إن كتبه رياض زاهرة ورسائل مشمسة^(٦). وكان ابن العميد يقول: إن الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللّسنِ والعارضمة^(٧)، وكان يقول أيضاً: إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً^(٨). ومع ذلك كان الجاحظ يشكو من حساده وأنه كان في أوائل

-
- | | |
|--------------------------|--------------------------------------|
| (١) نزهة الألبا ص ٢٥٥ . | (٥) نفس المصدر ٩٨/١٦ . |
| (٢) معجم الأدباء ٩٤/١٦ . | (٦) معجم الأدباء ١٠٣/١٦ . |
| (٣) نفس المصدر ٩٩/١٦ . | (٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٨٩/١ . |
| (٤) نفس المصدر ١٠٤/١٦ . | |

حياته إذا أخرج كتاباً معنوناً باسمه نغموه عليه وأظهروا له الازدراء فكان كثيراً ما يؤلف كتباً وينسبها إلى ابن المقفع والخليل والعتابي وسلم صاحب بيت الحكمة فيأتونه لكتابتها وروايتها عنه^(١) !!

وقد عاش الجاحظ نحو ستة وتسعين عاماً وتوفي سنة ٢٥٥ هـ^(٢)؛ وأكبر الظن أن هذه السن الطويلة هي التي ساعدته على كثرة التأليف وأيضاً فقد كان مشوه الخلق جاحظ العينين^(٣) فانصرف عنه الناس وعنى هو بصناعة الكتب، وما ساعده على ذلك أنه مرض شطراً طويلاً من حياته فاضطر إلى ملازمة بيته وقطع فراغه بالكتابة والتأليف، وقد ألف أثناء هذا المرض أشهر كتبه، ونقصد كتاب الحيوان الذي شكاه فيه من مرضه^(٤)، والذي قدمه لابن الزيات المتوفى عام ٢٣٣ هـ وإنه ليقول له متفكهاً في إحدى رسائله وقد أشار عليه أن يجلد كتبه: « جعلت كتبى مصحفاً مصحفاً . . . ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصب، استظهاراً على تعب البدن، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعمال، وإذا كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب»^(٥). ويظهر أن هذا المرض الذي شكاه منه الجاحظ في رسائله وحيوانه هو الفالج، ومن يرجع إلى الحصرى في ذيل زهر الآداب يجده يؤكد أن الجاحظ ألف الحيوان وهو مفلوج^(٦). وقد صرح الجاحظ في كتاب البخلاء بأنه ألفه وهو مصاب بالفالج إذ يقول: « صحبني محفوظ النقاش من المسجد الجامع ليلاً، فلما صرت قرب منزله، وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلي سألتني أن أبيت عنده، وقال أين تذهب في هذا المطر والبرد ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار، وعندى لبتاً لم ير الناس مثله، وتمر، ناهيك به جودة؛ لا تصلح إلا له، فلت معه، فأبطأ ساعة، ثم جاءني بجم لباً وطبق تمر، فلما مددت يدي

- | | |
|--|---|
| (١) مجموعة رسائل الجاحظ (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨ . | (٤) انظر الحيوان ٢٠٨/٤ . |
| (٢) أمالي المرتضى ١/١٩٩ . | (٥) مجموع رسائل الجاحظ ص ٧٤ . |
| (٣) وفيات الأعيان ١/٣٨٨ . | (٦) ذيل زهر الآداب للحصرى (طبع الخانجي) ص ١٦٥ . |

قال يا أبا عثمان ! إنه لبأٌ وغلظه وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً»^(١). وكما أصيب الجاحظ بالفالج أصيب بالقرس ويظهر أن ذلك كان في أواخر حياته، قال المبرد : « دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له كيف أنت ، قال كيف يكون من نصفه مفلوج لو نُخزَّ بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه»^(٢) ويقال إن المتوكل وجّه في طلبه سنة ٢٤٧ هـ يريد أن يُجمَل إليه فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل، ذى شِقِّ مائل ولعاب سائل ، وعقل زائل ولون حائل»^(٣). ويروون أن طبيباً عاده فقال له : « اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلت بارداً أخذ برجلى وإن أكلت حاراً أخذ برأسى»^(٤). وأخيراً وبعد مرض قاس طويل انتهت الكتب على الجاحظ يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه^(٥) ، وهكذا ذهب الجاحظ ضحية آثر الأصدقاء وأعزهم لديه^(٦).

٧

الصنعة الجاحظية

يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعاً عاماً إلا وكتب فيه رسالة أو كتاباً، وإن من يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألّف في النبات وفي الشجر وفي الحيوان وفي الإنسان وفي المعاد والمعاش وفي الجلد والهزل وفي الترك والسودان وفي المعلمين والقيان وفي الجوارى والغلمان وفي العشق والنساء وفي النبيذ وفي الشيعة والعباسية وفي

-
- (١) البخله (نشر وزارة التربية والتعليم) (٥) انظر تاريخ أبي الفدا في سنة ٢٥٥ هـ ، ٤٥/٢ .
 (٢) مصمم الأدباء ١٦/١١٣ .
 (٣) أمال المرتضى ١/١٩٩ .
 (٤) أمال المرتضى ١/١٩٩ .
 (٥) انظر أيضاً شذرات الذهب لابن العماد (نشر مكتبة القدس) ٢/١٢٢ .
 (٦) الحيوان ١/٣٨ .

الزيدية والرافضة وفي الرد على النصارى وفي حجج النبوة ونظم القرآن وفي البيان والتبيين وفي حيل لصوص النهار وحييل سُراق الليل وفي البخلاء واحتجاج الأشحاء . وإن في هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في خلاصة وبيان عذب ، وكأني به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصيف ، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق في موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان . وكان لذلك صبغته الخاصة في كتابته ، فإنها كتابة ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب ، وليس معنى هذا أنه كان يهمل ألفاظه وتراكيبه ، بل لقد كان يعنى بهما عناية شديدة ، وقد صرح بذلك غير مرة فقال إنه يعنى بتأليف كتبه ويتأنق في ترصيفها^(١) . ويقول : « لربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحصفاً كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة »^(٢) . ولكن عناية الجاحظ على هذا النحو بكتبه ورسائله وأسلوبه فيهما لم تكن تجعله يخرج إلى التماس الألفاظ من حيث هي ألفاظ ، فقد كان يرى أن « شر البلغاء من هيباً رسم المعنى قبل أن يهيب المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخاق لذلك المعنى اسماً غيره »^(٣) . فالجاحظ كان يكره العناية البالغة باللفظ تلك العناية التي تسوق صاحبها إلى حفظ أساليب محفوظة بذاتها يبني عليها معانيه ويصوغ عليها أفكاره ، فإن ذلك يقود الكاتب إلى أن يصبح عبداً لمجموعة من الألفاظ يجر إليها المعاني ويشدها شدةً .

وهذا هو الطابع العام للجاحظ في كتاباته فهو يعنى بألفاظه ومعانيه جميعاً دون أن يجور أحد الفريقين على الآخر أو يحيف عليه ، وقد دفعه ذلك إلى أن يعنى بأرائه وأدلته وبراهينه ومقدماته ونتائجه متأثراً في ذلك بما لقف من منطق وفلسفة ومعرفة بالجدل والحوار اللذين كانا شائعين في بيئته ، ونقصد بيئة المعتزلة ،

(١) مجموع رسائل الجاحظ ص ١٠٢ . (٢) رسائل الجاحظ (طبع السامى) ص ١٥٩

(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ .

ويجانب ذلك نجده يعنى أيضاً بألفاظه وأساليبه عناية من شأنها أن تجعله يدقق في انتخاب ألفاظه وأن يقطع عباراته تقطيعات صوتية طريفة، وهي تقطيعات انزلت به إلى فنون من التكرار الموسيقى، كى تم له الموازنة بين لفظه ومعناه، تلك الموازنة التي انتهت به إلى أن يعشق الأداء الدقيق لمعانيه وأن يعشق معه الوصف الحسى الصحيح لما شاهد، مما آذن بظهور الواقعية في كتبه، وأيضاً فإنه كان يرى أن يخرج دائماً في رسائله وكتابات من باب إلى باب حتى لا يمل القارئ، مما طبع أعماله جميعاً بطابع الاستطراد، وأكبر الظن أننا لا نبعد إذا قلنا إن الصفات الفنية الأساسية في كتابات الجاحظ هي الواقعية والاستطراد وضروب من التلوين الصوتي وأخرى من التلوين العقلي بحيث لا تقرأ أى أثر من آثاره إلا وتجد هذه العناصر الأربعة لصنعة ماثلة تحت عينيك إذ يسعى الجاحظ دائماً إلى أن يروى لك الوقائع كما هي دون تمويه، كما يسعى إلى الاستطراد في تأليفه حتى لا يسأم القارئ ولا يناله شيء من الكد والسَّوق العنيف، وأيضاً فإنه كان يشفع كتاباته دائماً بتلوين صوتي أنيق وتلوين عقلي بديع، وسنقف لفصل هذه العناصر الأربعة لصنعة الجاحظ وهي الواقعية والاستطراد والتلوين الصوتي والتلوين العقلي .

الواقعية

من يتابع الجاحظ في صنعة كتبه ورسائله يجده يشغف بمحاكاة الواقع، لا يتسر، ولا يتخفى، حتى إنه ليذكر السوءات والعورات في غير موارد ولا مداجاة، وكأنه كان يرى أن يذكر الحقائق عارية دون أن يسدل عليها أى ستر أو أى حجاب، ودافع مراراً عن هذا المنهج وقال إن من يعدل عنه لا بد أن يكون صاحب رياء ونفاق، وهو ليس من أهل الرياء والنفاق، بل هو من أهل الصراحة، أو هو بعبارة أدق من أصحاب منهج الواقعية (Realism) الذين لا يداجون ولا ينافقون بل يصفون الأشياء كما هي في غير تحرج ولا تأثم حتى إنهم لا يخجلون من وصف بعض النزعات الجنسية لأنهم يريدون أن يصفوا

الحياة كما هي بدون تغيير ولا تبديل إلا في حدود التعبير الفني .

وهذه النغمة من الواقعية في آثار الجاحظ أثرت في كتاباته آثاراً مختلفة ، ولعل أول هذه الآثار أننا نجد نغمة يعنى بحكاية عصره وتمثله تمثيلاً دقيقاً بحيث تُعد أعماله أهم مزاج تكشف لنا حقائق العصر الذى عاش فيه ، إذ نراه يصور هذه الحقائق بكل ما فيها من طُهرٍ ووزرٍ ، ودين وزندقة ، وجد وهو ، وبالغ في ذلك حتى إنه ليروى كلام الخجائين الموسمين وكلام أهل الغفلة من النوكى والحمقى^(١) . وإنه ليروى أيضاً عن الغلمان والصعاليك والزُطّ واللصوص كما يروى عن الخلفاء والأمراء والوزراء وقواد الدولة وكبار كتّابها . وارجع إلى كتاب البخلاء فإنك تراه يعرض عليك بخلاء عصره من مثل سهل بن هرون والكندى وابن غزوان والحارثى والحرايمى في غير تصنع ولا مداراة ، وفيه يتصنع الجاحظ ويدارى؟ إنه يريد أن يجعل الأدب صورة من الواقع ، وهو لذلك لا يستعين على كتابة بخلائه بالتاريخ أو ذاكرة الماضى ، إنما يستعين بمفكرة الحاضر والعصر الذى يعيش فيه وقد عرف كيف ينقله إلينا بجميع طبقاته وأفراده وملائمهم وخصائصهم النفسية .

وأثر ثانٍ أثرته الواقعية في كتابات الجاحظ وهو ما يلاحظ عليه من تدقيقه في ألفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصفه أو يصوره حتى إنه ليحكى كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ لينقل إليك الواقع بكل ما فيه . يقول في البخلاء : « وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرّب أو لفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبتغض هذا الباب ويخرجه من حدّه إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هرون وأشياهم»^(٢) . فهو يحكى دائماً أخباره وحوادثه بلغتها الدقيقة ، وأكبر الظن أن هذه النزعة فيه هي التى حملته على أن يتلّهج في كتبه ورسائله كثيراً بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال^(٣) . ومن قوله بصدد ذلك : « إن

(١) انظر البيان والتبيين ٢/٢٢٥ وكذلك

(٣) الحيوان ٣/٤٣ وانظر البيان والتبيين

. ١٣٨/١

٣٤٤/٢ . وأيضاً ٥/٤ وما بعدها .

(٢) البخلاء ١/٧٨ .

لكل معنى شريف أو وضع ، هزل أو جد ، حرفة أو صناعة ، ضرباً من اللفظ هو حقه ونصيبه الذى لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه « (١) . وفى هذا ما يدل على شدة عنايته بالملاءمة بين الألفاظ ومعانيها ، ولعله من أجل ذلك كان يدعو إلى « النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب » (٢) .

وأثر ثالث أثرت به الواقعية فى كتابات الجاحظ وأعماله ، وهو ما يمتاز به من عدم عنايته بالتشبيبات والاستعارات إلا ما جاء عفواً للخاطر أو كان الغرض منه تمثيل الواقع ، وهذا طبيعى عند الجاحظ لأنه لم يكن يعمد إلى زينة لفظية عشقاً للزينة من حيث هى على نحو ما سنعرف فيما بعد عند أصحاب مذهب التصنيع ؛ فالكتابة عنده ليست زخرفاً خالصاً يراد به إلى الوشى والحلى وما يندمج فى ذلك من صور وتشبيبات واستعارات ، بل هى معان تؤدى فى دقة ، تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تسترهُ أسجاف الاستعارات والأخيلة . وليس معنى ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير ، فإنه إنما عزف عن الأخيلة ، لما تضع أمام القارئ من مبالغات ، أما بعد ذلك فإنه كان مصوراً عظيماً ، إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسخفه فى ذلك قدرة غريبة على الملاحظة ، وهى قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة كما يحسن القصص من جهة أخرى . ويتضح ذلك فى كتابه البخلاء حين يرسم جشع النهمين وحركات أيديهم وقسمات وجوههم ، كما يتضح فى كتاب الحيوان وما أودعه من قصص . ومن قصصه البارعة فيه التى تصور دقة تصويره ما حداه عن عبد الله بن سَوار القاضى ووقاره فى قصصه الدينى ووعظه وأنه كان لا يحرك أثناء كلامه رأسه ولا يديه حتى كأن كلامه يخرج من صدع صخرة ، فألح الذباب عليه يوماً ، وما زال به حتى أخرجه عن طبعه ، فاستعان بتجريك أجنانه ، ولم يُجده ذلك نفعاً فذبه عن وجهه بيديه ، فابتعد عنه قليلاً ثم عاد إليه ، فدفعه بطرف كفه ، وما زال يتابع ذلك . يقول (٣) :

(١) رسائل الجاحظ (طبع السامى) ص ١٥٩ . (٢) الحيوان ٣/٣٤٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠ .

« كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار لم ير الناس حاكماً قط ولا زِميتاً^(١) ولا ركيناً^(٢) ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فىأتى مجلسه ، فَيَحْتَبِي ولا يَتَكَبَّرُ ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبُوتَه^(٣) ولا يحولُّ رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقِيَّه ، حتى كأنه بناء منبى أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ثم يرجع إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حوالبه وفى السَّاطِن^(٤) بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المُكْتَثُ ، ثم تحول إلى مؤق^(٥) عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضن وجهه أو يذب بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه . ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى فتمس خرطوموه فى مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتمال له أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلحُّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده ، ففعل ، وعميون القوم إليه ترمقه . فتنحى عنه بقدر ما ردد يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألبأه إلى أن ذب

(١) زميتاً : وقوراً .
بعمامة ونحوها .

(٢) ركيناً : رزيناً .
(٤) السَّاطِن : مثنى سباط وهو الصف .

(٣) الحبوقة : أن يحجم الرجل بين ظهره وساقه
(٥) المؤق : طرف العين مما يلي الأنف .

عن وجهه بطرف كنه ثم ألباه إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين من حَضْرَهُ من أمثاله وجلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء وأزهى من الغراب ! وأستغفر الله ! فأكثر من أعجيبته نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمت أنى عند الناس من أزمّت (١) الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإن يسألهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب) .

وواضح أن القصة تعتمد على دقة التصوير ، وهي دقة ترسم الواقع ربما أميناً ، بدون تهويل أو مبالغة أو اعتماد على استعارات وتشبيهات إلا ما يأتي عفواً للإيضاح لا للتجميل والترزين .

الاستطراد

وإذا كانت الواقعية عنصراً أساسياً في أعمال الجاحظ فإن هناك عنصراً آخر عم آثاره، وربما كان أهم من عنصر الواقعية، وهو عنصر الاستطراد إذ يلاحظ كل من يقرأ في الجاحظ حالاً من التشعث في التأليف ، فهو دائماً ينتقل من باب إلى باب ومن خبر إلى خبر ومن شعر إلى فلسفة ومن جد إلى هزل في تشعب هائل ، حتى ليقول كاراً دى فو : إن الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد (٢) ، وقد أشار إلى هذا الاستطراد قديماً المسعودي في كتابه مروج الذهب (٣) ، وقد كان الجاحظ يتخذ منهجاً في تأليفه وخاصة في حيوانه وبيانه ، واعترف به مراراً واحتج له . انظر إليه يقول في الحيوان : « قد عزمْتُ - والله الموفق - أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادير من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة

L'Islam Vol. 1, p. 295.

(١) أزمّت الناس : أندم وقاراً وسكوناً .

(٢) Carra de Vaux, Les Penseurs De (٣) مروج الذهب ١٣٦/٤ .

إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح^(١). ويقول أيضاً: « ولولا أني أتكل على أنك لا تملّ » باب القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفي الذرة حتى تخرج إلى البعوضة، وفي العقرب حتى تخرج إلى الحية، وفي الرجل حتى تخرج إلى المرأة، وفي الذبان والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعقبان، وفي الكلب حتى تخرج إلى الديك، وفي الذئب حتى تخرج إلى السبع، وفي الظلّف حتى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر حتى تخرج إلى الخفّ، وفي الخفّ حتى تخرج إلى البرثن، وفي البرثن حتى تخرج إلى المختب، وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف، لرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما يُميلُ ويعتدُ على فيه بالإطالة؛ لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أمّ على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطُلْ عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جِماماً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب، ولعله أن يكون أثقل والملا ل إليه أسرع، حتى يفضي به إلى مَزْح وفكاهة، وإلى سُخْف وخرافة، ولست أراه سخفاً إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء^(٢).

وإذا فاللاحظ يعترف بأنه يستطرد وبأنه يعتمد إلى ذلك عمداً خشية ملل القارئ وسامة السامع، واحتجّ لصنيعه بأن الأوائل قد سارت في كتبها هذه السيرة، إذ يقول: إنه إنما يستعمل سيرة الحكماء وآداب العلماء. ولسنا ندرى أي حكماء وعلماء يشير إليهم إلا أن يكون قد أشار بذلك إلى بعض ما تُرجم للعرب من كتب الهند التي يشبه البيروني ما فيها «بصهدف مخلوط بخزف، أو

(١) الحيوان ٧/٣ .

(٢) الحيوان ١/٩٣ .

بدّر ممزوج ببعر، أو بمهى مقطوب بحصى»^(١) وإن من يتصفح كتاب كليلية ودمنة يجد ظاهرة الاستطراد واضحة فيه . على أن هناك علة لاستطراد الجاحظ ذكرها صراحة في حيوانه إذ يقول : « قد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب . . فإن وجدت فيه خلا من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، أو من تقطيع نظام ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكره بعد أن صورت لك حالى التى ابتدأت عليها كتابى »^(٢) . فهو يعترف بأن مرضه أدخل الخلل على تأليف حيوانه ، ومرّبنا أنه ألفه وهو مفلوج ، وألف بعده كتاب الحيوان ، والتبيين^(٣) فظهر فيه الخلل والاستطراد بأوسع مما ظهرها في كتاب الحيوان ، لا لسبب إلا لأن العلة طالت عليه ، وكأن ما أمضه منها كان له أثره في بلبله أفكاره واضطرابها وحدث كثير من النشاز فيها ، فهو برم بمرضه قلق ، وهو برم أيضاً بما يعرض في بيانه لا يكاد يستقر عند موضوع يصفه ، وإنه ليقول فيه : « كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم ، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم ، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ونقسم أمورهم باباً باباً على حدته ، ولكنى لما عجزت عن نظمه وتنصيده تكلمت ذكرهم في الجملة »^(٤) . فهو يقرّ بعجزه عن التنظيم والتنسيق لما كان من مرضه ، ولما كان أيضاً من قلة الأعوان كما يقول في الحيوان ، ومن ثمّ كان من يقرأ في كتبه يخيل إليه أنه لم يكن يعرف التركيز في تأليفه ، إذ ما تزال الأفكار تندفع علينا من كل صوب في غير نظام ولا سياق مطرد ، بل فكرة من هنا وفكرة من هناك في صورة واضحة من التشعب والتشعث ، وقد ساعده على ذلك ثقافته الواسعة بجميع معارف عصره من هندية وفارسية ويونانية وإسلامية وعربية . وإن الإنسان ليعجب إذ يقرأ الصفحة في حبهانه فيجد هذه الثقافات

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٢ . الحيوان . انظر البيان والتبيين ٣/٣٠٢ .

(٢) الحيوان ٤/٢٠٨ . (٤) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

(٣) ذكر الجاحظ في البيان أنه ألف بعد

كلها قد وُضع بعضها بجانب بعض، وكأنه حين كان يكتب - بل حين كان يملئ كما سئرى بعد قليل - كانت تنطلق إليه سيول المعرفة من كل واد فيتركها تنزلق إلى آثاره بطبيعتها التي أطبقت بها عليه .

التلوين الصوتي

هذا هو العنصر الثالث في كتابات الجاحظ، فنحن لا نقرأ له أى عبارات من تأليفه حتى نجدته يعنى بأصواته عناية تُفضى إلى ضروب مختلفة من الإيقاعات الصوتية، ولم يكن يستعين على تجميل هذه الإيقاعات بشيء من البديع وألوانه، بل كان يكتفى بها لتعبّر عن كل ما يريد من جمال لأسلوبه وطلاوة . وليس معنى ذلك أنه كان يستخدم السجع أو أسلوباً مقارباً منه، فإن السجع لم يكن يصلح له في تأليف كتبه ورسائله الطويلة، لذلك عدل عنه إلى ضروب من الإيقاعات، وهى إيقاعات كان يستعين عليها بصور مختلفة من التكرار والترداد . واستمع إليه كيف يستهل حيوانه^(١) :

«جئبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصديق سبباً، وجئب إليك التثبيت، وزين في عينيك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرده عنك ذلّ اليأس، وعرفك مافي الباطل من الذنّة وما في الجهل من القلّة» . وهذه هى النغمات الأولى في الكتاب، وعلى أساسها ينصبّ جميع النغم الذى نقرؤه فيه، إذ نرى الجاحظ يحاول دائماً أن يُجودَ لفظه، وهو لا يكتفى بذلك، بل يسعى دائماً إلى إحداث ضروب من التوقيع، وهو توقيع كان يلتمسه من معادلة ألفاظه معادلة لا تنتهى إلى السجع، ولكنها تنتهى إلى هذا التوازن الصوتي الدقيق، فكل جملة تقابل أختها في موازين الجاحظ الموسيقية، وهى موازين تحقّق لصيغته هذا اللون من الجمال الموسيقى الذى كان يسميه القدماء ازدواجاً ونسبته إيقاعاً وتلويناً صوتياً بديعاً، وهو تلوين كان يدفع الجاحظ دفعاً

(١) الحيوان ٣/١ .

إلى ضروب من التكرار والترادف ، واستمير مع الجاحظ في الحيوان فستره يقول
بعد هذه النعمات الأولى من الكتاب بقليل (١) :

« إن كل من التتقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمّهات العلم مجموعاً كان له
غُنْمه ، وعلى مؤلفه غرْمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كدّه ، مع تعرّضه
لمطاعن البُغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرّضه عقله المكدود على العقول
الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمة فيه المتأولين والحسدة . وهذا
كتابٌ تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم . ويشتهيه الفتيان كما
يشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب
ذو اللهو ، كما يشتهيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغُفْل ، كما يشتهيه الأريب ،
ويشتهيه الغبي ، كما يشتهيه الفطّين » .

وهكذا ينطلق الجاحظ في كتاباته — على نحو ما نرى الآن في حيوانه —
بهذا النَّقْسِ الواسع المسترسل الذي لا يتعثر ولا يتلجلج ، بل ينطلق في هذا
القيّض العذب ، وكأنما لا يعوقه في طريقه عائق لا من لفظ ولا من تعبير ،
وانظر إليه يقول بعد ذلك في وصف الكتاب (٢) :

« الكتاب وعاءٌ مليءٌ علماً ، وظرفٌ حُشى ظرفاً ، وإناءٌ سُحن مُزاحاً
وجيداً ، وإن شئتَ كان أبين من سُحبان وائل ، وإن شئتَ كان أعياناً من باقل ،
وإن شئتَ ضحكتَ من نوادره ، وإن شئتَ عجبتَ من غرائب فرائده ، وإن شئتَ
أهنتك طرائفه ، وإن شئتَ أشجنتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مله ، وبزاجرٍ
مُغرٍ ، وبناسك فاتك ، وبناطقٍ أحرص ، وبيباردٍ حارٍ ، ومن لك بطبيبٍ
أعرابي ، ومن لك برومي هندي ، وبفارسٍ يوناني ، وبقديم مولدٍ ، وبميت
متمتع ، ومن لك بشيء يجمع لك الأول الآخر ، والناقص والوافر ، والخفي والظاهر ،
والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكل وخلافه ،
والجنس وضده » .

(٢) الحيوان ١/٣٨ وما بعدها .

(١) الحيوان ١/١٠ .

وعلى هذا النمط يسوق الجاحظ عباراته ومزاجاته ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُخِّرَتْ له ألفاظ اللغة تسخيراً ، فهو يختار منها ما يشاء ويهوى في غير عنت ولا تكلف ، بل في مهارة وحذق ، فإذا هو يصل إلى هذه الأصوات الفخمة أو قل هذه المركبات الموسيقية ، فالموسيقى أساسية في جواهر عباراته وأعراضها وما يَسِمُها في باطنها وظاهرها. وإذا أنت رجعت لتحلل هذه المركبات وجدتها تنحل إلى ظاهرتين أصيلتين في كل ما يؤلف ، وهما : التقطيع الصوتي من طرف ، والتكرار والترداد الموسيقي من طرف آخر ، أما التقطيع فهو الذي يتيح له هذه المعادلات الصوتية التي تجعل العبارات تتعادل هذا التعادل الموسيقي البديع ، وكأنما قد فُصِّلَتْ تفصيلاً وقسِّمَتْ تقسيماً ، وأما التكرار والترداد فقد كانا شائعين في بيئة المتكلمين بسبب محاضراتهم ومناظراتهم ، وأيضاً فقد شاعا على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع عند وعاظ العصر الأموي ومن خلفهم في العصر العباسي وعند عبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون ، ولكن الشيء الذي يلفت حقاً هو أن الجاحظ وسعهما إلى أبعد طاقة يمكن أن تحتملها الأساليب . وما من ريب في أن هذا التكرار يضفي على أساوبه ضروباً من الجمال إذ نراه يستعين به على ما يريد من تقطيعات وتوقيعات صوتية ، فإذا الفكرة لا تؤدَّى في عبارة واحدة ، ولكن في عبارتين أو أكثر ، لا لسبب إلا لأن الجاحظ يريد لها أداءً موسيقياً بجانب أدائها المعنوي .

ومن يتابع درس الجاحظ يعرف أن هناك سبباً مهماً لتكراره في كتبه وترداده ، وهو أنه لم يكن يكتب بل كان يملى ، وقد ذكر ذلك صراحة في إحدى رسائله لابن الزيات إذ قال له : « إن الوراق أصبح لا يخطحطراً »^(١) ، ويذكر ياقوت أن هذا الوراق كان يسمى زكريا بن يحيى^(٢) ، وإن في هذا ما يدل على أن الجاحظ لم يكن يكتب كتبه ورسائله منذ ابن الزيات المتوفى عام ٢٣٣هـ ، بل كان يملى على شخص أو أشخاص لما قلعنا من مرضه ، وطبع هذا الإملاء كتبه بطابع المحاضرة ، ومن ثم طبعها بطابع التكرار والترادف ، كما طبعها

(٢) معجم الأدباء ١٦/١٠٦ .

(١) مجموع رسائل الجاحظ ص ٧٧ .

بطابع كتب الإملاءات من حيث الخلل والاستطراد والإيجاز في بعض الأشياء المهمة ، والإطناب والتفصيل في بعض الأشياء التافهة . ومهما يكن فقد كان الجاحظ يعنى بأساليبه عناية توفّر لها ضرورياً من التقطيع الصوتي ، وقد ذهب يستعين في ذلك بتكراره وترداده حتى تستوفي أساليبه كل ما يمكن من هذا التلوين الصوتي الذي يكسب تعبيره جمالاً خاصاً يتفوق به على جميع الكتاب في عصره .

التلوين العقلي

ربما كان هذا العنصر أهم العناصر الأربعة التي تكوّن فن الجاحظ وصنعتة ، إذ كان يشفع كتابته دائماً بضروب من التحاسين العقلية ، وهي ليست تحاسين فنية في أصلها ، إنما هي تحاسين منطقيّة وفلسفية ، واستطاع الجاحظ في رسائله وكتبه أن يحولها إلى تحاسين فنية خالصة أو تكاد ، إذ كان يدخلها في جميع أوعيته الصوتية . وطبيعي أن تظهر هذه التحاسين عند الجاحظ لأنه كان متكلماً ، ووصف هو نفسه المتكلم لعصره فقال كما مرّ بنا في غير هذا الموضع : « لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة » ، ولعل من الطريف أنه أضاف الفلسفة في حيوانه إلى بعض المتكلمين فقال : « ورأيت ناساً من فلاسفة المتكلمين »^(١) وقد قال في الحيوان صراحة إن هذا الكتاب « أخذ من طُرف الفلسفة »^(٢) ، وإضافة الطُرف إلى الفلسفة إحساس من الجاحظ بما تدخله فلسفة العقل على تعبير صاحبه من تحاسين وتلاوين ، ولعل ذلك ما جعله يعد المذهب الكلامي من ألوان البديع^(٣) ، وهو لا يريد بهذا المذهب إلا ما أدخله المتكلمون من طرق جدل وحوار وسفسطة وأدلة وبراهين ومقدمات وأقيسة . وانظر في الحوار الطويل الذي رواه في الحيوان عن النظام ومبهد في تفضيل الكلب

(٣) البديع لابن المعتز (طبع كراتشوفسكى)

(١) الحيوان ٢/١٤٠

(٢) الحيوان ١/١١ .

على الديق أو العكس ترّ حوارهما يمتد في عشرات الصحف ، وقد استعان كل منهما بما يمكن من براهين حسية وعقلية على التليل لرأيه ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن كلاً منهما قد استعار شخصية الحيوان الذي يدافع عنه ، وهو لذلك يتسلح لخصمه بكل ما يستطيع العقل أن يسعفه به من براهين صحيحة وغير صحيحة في افتنان وبراعة يدلان على مبلغ ما فتقت الفلسفة من عقول المتكلمين والسنتهم .

وقد تربى الجاحظ في هذه البيئة على يد أستاذه النظام فأخرجه لسناً جديلاً يعرف كيف يحاور ويداور وكيف يستعين بالمنطق الصحيح ، وكيف يستعين بالمنطق السقيم ليدعم رأيه ، وينصر فكرته ، وقد تشبث بطريقة الحوار والجدل وما يتعلق بهما من مغالطة وسفسطة ، فتكلم كثيراً عن محاسن الأشياء ، ثم عاد فتكلم عن مساوئها ، ولعل خير ما يفسر ذلك كتاب المحاسن والأضداد الذي ينسب إليه ، وقد لا يكون هذا الكتاب له ، ولكن من يقرأ فيه يؤمن بأنه إما أن يكون من صنع الجاحظ نفسه أو من صنع شخص استمدته من مغالطات الجاحظ في كتبه .

والجاحظ كما يعتمد على المغالطة أحياناً نراه أيضاً يعتمد على صحة الأدلة وصدق المقدمات أحياناً أخرى ، بل إن هذا هو الغالب عليه ، وقد تلوم في حيوانه من لا يعنون بصحة مقدماتهم^(١) ، وعاب النظام كما مرّ بنا بأنه لا يصحح الأصل الذي يبنى عليه قياسه ، وقد جعله ذلك يمتاز من كتّاب عصره باستخدام المنطق استخداماً واسعاً في تضاعيف أسلوبه ، فهو دائماً يعرض أفكاره في صورة حجاج يقوم على براهين وأدلة ومقدمات وأقيسة ، ولا غرابة ، فقد كان يعتد بذلك كلون عباسي بديع ينبغى أن يدخل في دوائر النثر وأن تحلّى نماذجه به حتى تنبسط الكتابة ويتسع التعبير فيها اتساعاً يرفده العقل الدقيق والمنطق الوثيق ، وإن الجاحظ ليتشبث بذلك في أبلغ صورة يمكن العقل أن يتصورها عبّاسياً في القرنين الثاني والثالث يريد أن يسيطر المنطق على كل ما يكتب ، بل أيضاً على كل ما يعمل

فقد روى الرواة أنه اجتمع مع يوحنا بن ماسويه على مائدة بعض الوزراء، وكان في جملة ما قُدِّمَ مَضِيْرَةٌ عقبَ سَمَكٍ، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما، فقال له الجاحظ: «أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أننا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا»، فقال يوحنا: والله ما لي خبرة بالكلام ولكن كلُّ يا أبا عثمان، وانظر ما يكون في غد، فأكل الجاحظ انتصاراً لدعواه، ففلج في ليلته، فقال: هذه والله نتيجة القياس المحال^(١). وإن هذه القصة لرمز إلى عنايته بالمنطق في كل ما يتصل به من قول وفعل. ونحن لا نبعد إذا قلنا إنه أهم كاتب في العصر العباسي الأول حكِّمَ المنطق في كل ما يصنع، فقد كان يعتمد عليه اعتماداً بالغاً في جميع كتاباته، وأقرأ له هذه القطعة التي يتحدث فيها عن الخير والشر وأنها ضروريان لصلاح الكون^(٢):

«اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر، والضارُّ بالنافع، والمكروه بالسار، والضعفة بالرفعة، والكثرة بالقلّة، ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلك الخلق، أو كان الخير مَحْضاً سقطت المحنة. وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبتٌ وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يُعرَفُ باب تبيينٍ، ولا دَفْعُ مَضْرَةٍ، ولا اجتلاب منفعة، ولا صَبْرٌ على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضلٌ في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر وعزّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحَقِّقٌ يجد عزّ الحق، ومبطل يجد ذلّة الباطل، وموقن يجد برّ ردّ اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال، ولم تشعبها الأطماع، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس، جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء حال السَّبْعِ والبهيمة، وإلى حال الغباوة

(٢) الحيوان ١/٢٠٤.

(١) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء لابن

أبي أصيبعة ١/١٨١.

والبلادة وإلى حال النجوم في السُّخْرَةِ فإنها أنقص من حال البهائم في الرتعة ،
ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو بُرجاً من البروج
أو قطعة من الغيم ، أو يكون الحجر بأسرها ، أو مكياً من الماء ، أو مقداراً
من الهواء . . وأين تقع لذة البهيمة بالعذوق ولذة السبع بلطع الدم وأكل اللحم ،
من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القَرَع ؟ وأين
ذلك من سرور السُّودد ومن عزِّ الرياضة ؟ ولو استوت الأمور بطل التمييز ،
وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة . . ولو كان الأمر على ما يشتهي الغرير والجاهل
بعواقب الأمور لبطل النظر وما يشحذ عليه ، وما يدعو إليه ولتعطلت الأرواح
من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها ، فسبحان
من جعل منافعها نعمة ، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع ، وقسمها بين مُلِدِّ
ومؤلم ، وبين مؤنس وموحش ، وبين صغير حقير ، وجليل كبير ، وبين عدو
يرصدك ، وبين عقل يحرسك ، وبين مسلم يمنحك ، وبين معين يعضدك ،
وجعل في الجميع تمام المصلحة ، وباجتماعها تم النعمة ، وفي بطلان واحد منها
بطلان الجميع ، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً فإن الجميع إنما هو واحد ضم إلى
واحد ، وواحد ضم إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كل جثة فن أجزاء ، فإذا
جوزت رفع واحد والآخر مثله في الوزن ، وله مثل علته وحظه ونصيبه ، فقد
جوزت رفع الجميع ، لأنه ليس الأول بأحق من الثاني في الوقت الذي رجوت
فيه إبطال الأول ، والثاني كذلك والثالث والرابع حتى تأتي على الكل وتستفرغ الجميع .»

أرأيت إلى هذا الدفاع القوي عن ضرورة بقاء الشر في الكون ؟ وإنه
لدفاع يستمدده الجاحظ من التفكير الدقيق في حقائق الكون ، وهو تفكير يقوم
على المنطق والاستدلال والقياس كما يقوم على التأثير ببعض آراء المتكلمين الذين
يرفضون الجبر والتسخير في الحياة ويضعون مكانهما الاختيار والتمكين ، وهذا
كله يُبسِّط في ضروب من تلاوين الصوت وتحاسينه ، وإنها لضروب تشيع
في أسلوب منطقي منقطع القرين . ومن هذين المفتاحين ؛ جمال الصوت وجمال
المنطق ، تسقط النغمات التي تميز الجاحظ في جميع فنه وصنعتة ، إذ ما يزال

يتداخل التفكير العقلي وما يُشْفَعُ به من قدرة على البرهان والاستدلال مع التفكير الفنى وما يشفع به من قدرة على تقطيع الصوت، وما ينطوى في هذا التقطيع من تكرار وترداد، وبذلك يلتئم هذا الفن الجاحظى الذى يشيع فيه جمال العقل كما يشيع فيه جمال الصوت. وارجع إلى هذه القطعة الجميلة فإنك ترى الجاحظ يحسن التدليل على فكرته التى يذهب فيها إلى أن العالم يتألف من الخير والشر جميعاً، بحيث إذا سقط الشر منه سقط الحائط الذى يؤلفه، وكذلك الشأن إن سقط الخير، وإن الجاحظ ليجعل القضية قضية العقل، فإن تغيير الكون عما هو، يجعلنا نفقد آلة التفكير، ومتى فقدناها أصبحنا لا نستطيع التأمل فى علم، ولا الشعور بشيء ملذ أو مؤلم، إذ نصير كالحيوان فى الرتعة، بل لقد نتحول إلى الجماد فى السخرة: «ومن هذا الذى يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو بُرجاً من البروج أو قطعةً من الغيم؟» إن الكون يجب أن يستمر كما هو: خير ونفع، وشر وضر وإن كل جزء من أجزاء الخير، ومثله كل جزء من أجزاء الشر، يجب أن يظل كما هو لأن العالم يتألف من جميع هذه الأجزاء وما الجميع؟ «إنما هو واحد ضمُّ إلى واحد، وواحد ضمُّ إليهما، ولأن الكل أبعاض، ولأن كل جنة فن أجزاء، فإذا جوزت رفع واحد والآخر مثله فى الوزن، وله مثل علته وحظه ونصيبه؛ فقد جوزت رفع الجميع، لأنه ليس الأول بأحق من الثانى فى الوقت الذى رجوت فيه إبطال الأول، والثانى كذلك، والثالث، والرابع حتى تأتى على الكل وتستفرغ الجميع» فأى عقل هذا الذى يكتب بتلك المقدره على توليد الأفكار من جهة والإدلاء بكل ما يمكن من حجج وبراهين من جهة أخرى؟ إنه عقل الجاحظ وهو العقل الذى جعل ابن العميد - كما مر بنا - يقول: «إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً». فالعقل عند الجاحظ هو أساس صنعته الذى يستمد منه أدلته كما يستمد منه توليده للأفكار والمعاني، وأيضاً فإنه يستمد منه قياسه ومقابلاته، وقد كان مشغولاً بالمقابلة فى معانيه وأفكاره شغفاً شديداً، وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُحِرَ العقل بجميع مقوماته للجاحظ، وهو يختار ما يشاء من هذه المقومات فى رسائله وكتبه، ولعل ذلك

ما جعل المأمون يقول له وقد قرأ كتبه في الإمامة: « قد كان بعض من نرتضى عقله ، ونصدق خبره، حَبَّرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلت له : قد تُرَبِّي الصفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أُرَبِّي على الصفة فلما فَلَيتَتْها أُرَبِّي الفَلَيتُ على العيان كما أُرَبِّي العيان على الصفة»^(١). ونحن مهما وصفنا من عقل الجاحظ وما يشفع به كتابته من تلاوينه وتحاسينه، فإن ذلك لن يكون شيئاً بجانب ما يحسه القارئ له حين يتصفح أعماله، ويقف على مدى استعانته بالعقل في تأليفها وصورها ، والحق أن هذا عمل أوسع من أن نحيط به في صفحات معدودة، وغاية ما يمكننا هو أن نجمل هذا الصنيع في أن الجاحظ كان يُدمج إدماجاً بديعاً بين التلوين الصوتي والتلوين العقلي في آثاره، فإذا هي تصور طرافة التفكير في أعلى صورة كما تصور طرافة الصوت ، وما ينساق مع هذه الطرافة من تكرار وترداد كان يستعين بهما دائماً على تدبيح أساليبه وتحجيرها ؛ وإنهما ليتجليان دائماً في كل ما يملى ويكتب كما يتجلى جمال التفكير وجمال التعبير .

٨

رسالة التربيع والتدوير

ونحن نقف عند رسالة للجاحظ تجمع بين دفتيها محاسن التفكير الدقيق والتعبير الأنيق، ودى رسالة أنشأها في هجاء أحمد بن عبد الوهاب أحد أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات^(٢) وقد وصفه بأنه من بجيلة ومن أصحاب صالح بن علي وسليمان بن وهب وندماء جعفر الخياط^(٣)، وقال إنه من الرافضة المشبهة^(٤)، ونعته بأنه « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس

(٣) رسائل الجاحظ (طبع الساسي) ص ١٠٠ .

(١) البيان والتبيين ٣/ ٣٧٤ .

(٤) رسائل الجاحظ ص ١٤٢ .

(٢) أغاني (طبع الساسي) ٣٢/٢١ .

في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب»^(١) . وذكر أنه كان يخافه ويحاوله^(٢) . ومن أجل هذه المخاشنة والمطاوله وما ركب فيه من الحسد أُلّف له هذه الرسالة يسأله فيها عن بعض معارف عصره المشكلة سواء في المنطق والفلسفة ، أم في الكيمياء والصنعة ، أم في الإنسان والحيوان ، أم في تاريخ العرب وتاريخ غيرهم من الأمم ، وهو ينهى هذه الأسئلة الكثيرة التي امتدت في خمسين صحيفة من القُطع الكبير بقوله : « وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لاتحسن من هذا قليلا ولا كثيرا ، فإن أردت أن تعرف حَقَّ هذه المسائل وباطنها وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتي ولزوم بابي^(٣) . وحقاً إن من يتصفح الرسالة يجد أن كثيراً مما عرض له الجاحظ فيها ذكره في حيوانه ، ولعل في هذا ما يدل على أنها ألّفت بعد كتاب الحيوان : أي في أوقات مرضه وعلته ، ويشهد لذلك أننا نجدده يُنحى على أحمد بن عبد الوهاب باللائمة على ما يدعيه من علم بالحيوان وأنه يعرف في الخفاش سبعين أعجوبة^(٤) ، وأيضاً فقد تحدث فيها عن ابن الزيات الذي قدم له كتاب الحيوان بصيغة الماضي^(٥) ، مما يدل على أن عهده كان قد انقضى حين كتابة هذه الرسالة ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج ، لأن الرسالة مبنية على سنة الاستطراد التي عرفناها للجاحظ ، والتي زعمنا أنها جاءت في الغالب نتيجة لعلته وعجزه عن ترتيب كتبه ورسائله التي ألّفها حينئذ ، وهو يستلها على هذا النمط^(٦) :

« كان أحمد بن عبد الوهاب مُفْرَطَ القِصَرِ ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفّرته واستفاضة خاصرته مدوراً ، وكان جَعَدَ الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى السَّبَّاطة والرِشَاقَة ، وأنه عَتِيقُ الوجه ،

(٥) نفس المصدر ص ١٠٩ .
 (٦) ارجع إلى الرسالة بأكملها في نفس المصدر السابق وفي طبعها الأخيرة بتحقيق شارل بلات .
 (٧) الجفرة : جوف الصدر .

(١) رسائل الجاحظ ص ٨٣ .
 (٢) نفس المصدر ص ٩٥ .
 (٣) نفس المصدر ص ١٤٢ .
 (٤) نفس المصدر ص ١٤٠ .

أخصص^(١) البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد^(٢) ، رفيع العماد ، عادي القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقدم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد . ونحن منذ هذه السطور الأولى للرسالة نحس أننا يلزنا فن جديد في الهجاء يستعين فيه صاحبه بضروب من المفارقات ، فأحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وهو مربع وتحسبه لسعة جوف صدره واستفاضة خاصرته مدوراً ثم هو جعد الأطراف قصير الأصابع ومع ذلك يدعى السبابة والرشاقة ، وأيضاً فإنه طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، ويدعى أنه طويل الباد رفيع العماد ، عادي القامة عظيم الهامة ، وفي هذا كله مناقضات ومفارقات مختلفة ، ومن هذه المناقضات والمفارقات يستمد الجاحظ هجاءه لأحمد ابن عبد الوهاب وقد استطاع أن ينفذ من ذلك إلى تشويبه تشويهاً ربما كان يتفوق فيه على أصحاب فن التصوير الساخر « الكاريكاتوري » في العصر الحديث ، إذ نراهم يشوهون الأجسام بطرق مختلفة ، عمادها بعض الحقائق المادية فيها ولأنهم ليتعلقون بهذه الحقائق : يكبرونها ، ويستمدون منها ما يشاءون من هزل وسخرية . وكذلك كان الجاحظ في تلك الرسالة هجاءاً ساخراً يعتمد على جسم أحمد بن عبد الوهاب وما يسميه من قصر وتبعج ليستخرج ما يريد من هزله ؛ فهو تارة صاحب أصابع قصيرة جعدة كأصابع الحيوان وتارة هو طويل الظهر . قصير عظم الفخذ . وهو لا يكتفى بتشويه جسمه ، بل نراه يعمد أيضاً إلى تشويه عقله بواسطة ما يعرضه من أسئلة يهزأ به فيها كما يهزأ بتفكيره وكل ما يتصل به وهو يستعين على ذلك كله بفكرة الطول والقصر والتربيع والتدوير يستمد منهما كل ما يمكن من مفارقات ومناقضات ، فتارة يدعى له الطول في الباطن ، وتارة ثانية يصفه بالقصر ، وتارة ثالثة ينفهما عنه ، ويدعى له التربيع والتدوير ، ساخراً من جسمه وشكله .

(٢) الباد : باطن الفخذ .

(١) أخصص : ضامر .

في هذا ما يجعلنا نفهم لماذا سُميت الرسالة باسم رسالة التريبع والتدوير ، فقد بناها الجاحظ على هذه الفكرة التي نؤمن بأنه استعارها من فكرة الأوساط اليونانية المعروفة في الأخلاق ، لكن بعد أن حوَّرها وعلَّها على هذا النحو ، فإذا هي لا تثار في الأخلاق وإنما تُثار في الأجسام وفي هجاء أحمد بن عبد الوهاب . وقد كان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وذكرها مراراً في كتبه ورسائله ، بل ذكرها في هذه الرسالة نفسها ، إذ يقول لابن عبد الوهاب : « اعلم أن الحسد اسم لما فضل عن المنافسة ؛ كما أن الجبن اسم لما فضل عن التوقى ، والبخل اسم لما قَصَرَ عن الاقتصاد ، والسَّرَف ما جاوز الجود ، وأنت - جعلت فداك - لا تعرف هذا ، ولو أدخلت الكور ، ونفخت عليك إلى يوم يُنْفَخُ في الصور . » وما من ريب في أن الجاحظ عبَّر عن طرافة مدهشة حين استطاع أن يستغل هذه النظرية اليونانية في تعبيره الفني هذا الاستغلال القيم ، فإذا به يخرجها من دوائرها الفلسفية إلى دوائره هو الفنية ، مستعيناً على ذلك بمجاميع من الأخطاء وبما يمتاز به من مرونة في الجدل والحوار والسفسطة وما يُطَوَّى في ذلك من ضروب تناقض وتقابل ، واستمع إليه يعرض ابن عبد الوهاب على هذه الفكرة فيقول :

« وبعد فأنت - أبقاك الله - في يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حدٌّ لا يُفَسَلُّ ، وغربٌ لا ينثنى ، وهو قياسك الذي إليه تُنْسَبُ ، ومذهبك الذي إليه تذهب : أن تقول : وما على أن يراني الناس عريضاً ، وأكون في حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفي الحقيقة مقودود رشيق ، وقد علموا - أبقاك الله - أن لك مع طول الباد راكباً طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك - إذا قمت - اختلاف ، وعلبك لهم - إذا اضطجعت - مسائل ، ومن غريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقودوداً واسع الحفرة غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعراً جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع

الاستدارة والطول ! بل ما يهملك من أقاويلهم ، ويتعاطمك من اختلافهم ، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً ، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك ، وإذا قد سلموا لك بالرغم شطراً ، ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ! ولعمري إن العيون لتخطئ وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس ... ولو لم يكن فيك من العجب إلا أنك أول من تعبدته الله بالصبر على خطأ الحس ، وبالشكر على صواب الذهن لقد كنت في طولك آية للسابلين وفي عرضك مناراً للمضلين . وقد تظلم المربعُوعُ مثلي من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد . . . والمربعُوعُ - بحمد الله - اعتدلت أجزاؤه في الحقيقة كما اعتدلت في المنظر ، فقد استغنى بعزِّ الحقيقة عن الاعتذار ، وبحكم الظاهر عن الاعتلال ! وقد سمعنا من يذم الطوال كما سمعنا من يزري على القصار ولم نسمع أحداً ذم المربعُوعُ ولا أزرى عليه ، ولا وقف عنده ولا شك فيه . . . وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير ، ومن ينصرك منهم غير قليل ، وقد رأيتك زماناً تحتج بالنعمان بن المنذر وبضمرة .. وبرجال ناهيك بهم رجالاً ، وبأعلام كفاك بهم أعلاماً ، ورأيتك تقول : إن كان الفضل في النكايه وفي الشدة والصلابة فصغار كل شيء أشد ضرراً وأدق مدخلا ، وأظهر قوة وجلداً ، كالحجارة أصلبها الحصى ، وكالحيات أقتلها الأفعى .. وقلت إن كان الفضل في العدد فمنا بأجوج ومنا الذرُّ والفراش ، ومنا الدعاميص والبعوض والرمل والتراب وقطر السحاب» .

وعلى هذا النحو يسوق الجاحظ حديثه في الرسالة متلاعباً بفكرة الطول والقصر وما ينبغي أن يكون من التوسط بين الطرفين ، وإنه ليتسع بالحوار والجدل في ذلك اتساعاً شديداً ، فإذا هو يقف تارة في جانب القصر محتج له ، وتارة يقف في جانب الاعتدال ، وقد يقف في جانب الطول ، يبدل في كل

جانب بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية دقيقة. وتهديه هذه المناقشة دائماً إلى فكرة التربيع والأخذ به حتى لا يخرج مهجوراً عن حدود الاعتدال إلى حدود التقصير أو التبذير، وكأني باللاحظ أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل إلى مشكلة من مشاكل الفلسفة، إذ نراه يحقق فيه مسألة التوسط بين الطرفين تحقيقاً دقيقاً، وهو تحقيق يطوى كل ما يريد من سخرية به وتمكّم عليه إذ يتناوله مرة بالطول ومرة بالعرض وهو في أثناء تناوله يمدّه تارة ويقصره تارة أخرى وتارة ثالثة يبعثه في مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنعُ بصاحبه من تشويه، وانظرُ إليه محتج لطرفي الطول والقصر فيقول:

«قلت: والناس وإن قالوا في الحسن كأنه طاقة ربحان، وكأنه خوط^(١) بان، وكأنه قضيب خيـّـزُزان، وكأنه غُصنُ بان، وكأنه رُمحُ رُدَيْسِيّ، وكأنه صفيحة يمانية، وكأنه سيف هُنْدَاوَانِي، وكأنها جانّ، وكأنها جَدَلُ عَنَان^(٢)، فقد قالوا كأنه المُشْتَرَى^(٣)، وكأن وجهه دينار هرّ قَلْبِي، وما هو إلا البحر، وما هو إلا الغيث، وكأنه الشمس، وكأنها دارة القمر، وكأنها الزهرة، وكأنها درة، وكأنها غمامة، وكأنها مهابة، فقد تراهم وصفوا المستدير العريض بأكثر مما وصفوا به القضيـّف^(٤) والطويل. وقلت: وجدنا الأفلاك وما فيها، والأرض وما عليها، على التدوير دون التطويل، وكذلك الورق والتمر والحب والتمر والشجر، وقلت: والرمح إن طال فإن التدوير عليه أغلب، لأن التدوير قائم فيه موصولاً ومفصلاً؛ والطول لا يوجد فيه إلا موصولاً، وكذلك الإنسان وجميع الحيوان، وقلت: ولا يوجد التربيع إلا في المصنوع دون المخلوق، وفيما أكرهه على تركيبه دون ما خلّصني وسوّم^(٥) وطبيعة، وعلى أن كل سربع في جوفه مدور، فقد بان المدور بفضلته وشارك المطول في حصته. ومن العجب أنك تزعم أنك طويل في الحقيقة، ثم تحتج للاستدارة والعرض فقد أضربت عما عند الله صفحاً، ولهجت بما عند الناس.»

(١) الخوط: الغصن الناعم. البان: شجر.
 (٢) جدل عنان: أي مفتولة فتل العنان وهو
 (٣) المشتري: كوكب.
 (٤) القضيـّف: الضامر.
 (٥) سوم: ترك.

أرأيت إلى هذا الاحتجاج ؟ إنه من أهم سمات الجاحظ في كل ما يؤلف ويكتب ويملى إذ نرى عقله دائماً مشغولاً بالأدلة يسوقها على ما يقوله في هذا النحو البديع من الجدل والبحث . ألا تراه يحاول أن يتتبع الشعراء والأدباء في نعمهم للأشياء بالحسن والجمال ليرى هل ما يضيفون إليه هاتين الصفتين من باب القصار أو هو من باب الطوال أو هو منهما جميعاً ؟ والجاحظ لا يكتفى بذلك في احتجاجه وجدله ، إذ تراه يعمد إلى المغالطة عن طريق الرمح ، لأنه أجزاء موصول بعضها ببعض ، وإذن فالتدوير عليه أغلب ! ليس الرمح طويلاً ، وإن تراءى ذلك في الظاهر ، إنما هو مدور ، أما ما قد يبدو من طوله فغير صحيح ، لأنه يخالف الحقيقة التي تُطَوَّى وراءه ، وكذلك قصرُ أحمد بن عبد الوهاب غير صحيح ، لأنه يخالف الطول الذي يُطَوَّى خلفه وينبغي أن لا نحكم بالظاهر بل ينبغي أن نحكم بالباطن وما وراء الظاهر !

وإذا فليس بين أيدينا حقيقة يمكن أن نطمئن إليها ، وكل آرائنا التي نكوِّنها عن بعض الأشياء وأنها طويلة أو قصيرة قابلة للنقض في رأى الجاحظ كما يرضى ابن عبد الوهاب ويمده بأسباب من القول للاحتجاج على طوله المستر وراء قصره ، وهذا هو معنى أنه يلهج بما عند الناس ويترك ما عند الله . وما من ريب في أن الجاحظ وصل إلى هذا كله عن طريق المغالطة التي يسوقها في الرمح إذ يقول إنه يبدو طويلاً ، وهو في حقيقة الأمر قصير ، أو هو كما يقول الجاحظ مدور ، وذلك لسبب بسيط وهو أنه يتألف من مدورات ! وعلى هذا النحو ينتهى الجاحظ إلى أن كل مربع فهو في جوفه مدور . وواضح أنه يعتمد في ذلك كله على السفسطة ، وهو يتفقد منها إلى عرض صاحبه على فكرة القبح والحسن ، فإذا هو يصفه بالقبح تارة وما يلبث أن يصفه بالحسن تارة أخرى ، وجاء في ذلك بطرف لا تُحصَى على شاكلة قوله :

« ولو لم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول في الجملة ، وعند الوصف والملاحظة : هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس وأبهى من الغيث . وأنا لا نستطيع أن نقول في التفريق : كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدمه لسان حية ، وكأن عينه

ماوية^(١) ، وكأن بطنه قُبْطِيَّة^(٢) ، وكأن لسانه ورقة ، وكأن أنفه حَندٌ سيف ، وكأن حاجبه خُطَّ بقلم ، وكأن لونه الذهب ، وكأن عوارضه البَرَدُ ، وكأن فاه خاتم ؛ وكأن جبينه هلال وهو أظهُرُ من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء وهو أمضى من السَّيْلِ ، وأهدى من النجم ، لكان في ذلك البرهان النيِّر ، والدليل البَيِّن ، وكيف لا يكون كذلك وأنت الغاية في كل فضل ، والنهائية في كل شكل ، وأما قول الشاعر :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زَدْتَهُ نَظَرًا

وقولُ الدمشقيين : (ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقُبْبة مصلانا إلا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرُّس غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندرى أجوهرُ مقطعاته أكرم في الجواهر ، أم تنضيد أجزائه في تنضيدات الأجزاء) فإن ذلك معنى مسروق مني في وصفك ، ومأخوذ من كتبي في مدحك . . ومن يطعم في عَيْبِكَ ، بل من يطعم في قدرك ، وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خـود^(٣) إلا وهي تتعشَّرُ باسمك ولا قبينة إلا وهي تغنى بمدحك ، ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حُبِّك ، ولا محجوبة إلا وهي تشقب الخروق لمـرَّك ، ولا عجوز إلا وهي تدعولك ، ولا غيور إلا وقد شق بك ، فكم من كبد حرَّيْ مُنْضِجَةٍ ومصدوعة مُنْفَرِّثَةٍ^(٤) ، وكم من حشاخفق وقلب هائم ، وكم من عين ساهرة وأخرى جاهدة ، وأخرى باكية ، وكم من عسبري موهبة ، وفتاة معذبة قد أفرح قلبها الحزن ، وأجهد عينها الكمد قد استبدلت بالحلى العُطْلَةَ ، وبالأنس الوحشة ، وبالتكحيل المـرَّة^(٥) فأصبحت والهة مبهوثة ، وهائمة مجهودة بعد طـرْف ناصع ، وسن ضاحك ، وشكل ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تنوقد ، وشعلة تتوهج . . . وما ندرى في أي الحالين أنت أجمل ، وفي أي المنزلتين أنت أكمل : إذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ، أو إذا تأملنا بعضك ، فأما

(١) ماوية : مرآة .

(٢) قبطية : ثياب كانت تصنع بمصر من

(٣) الخود : الشابة الجميلة .

(٤) مفرثة : مشققة .

(٥) المره : عدم التكحيل وتقرح الجفون .

نسيج الكتان الرفيع .

كفكف فهي التي لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، وكما أصبحنا وما ندرى آل كئاس في يدك أحسن ، أم القلم ، أم الرمح الذي تحمله ، أم المخصرة ، أم العنان الذي تمسكه ، أم السوط الذي تعلقه ؟ وكما أصبحنا وما ندرى أى الأمور المتصلة برأسك أحسن ، وأيها أجمل وأشكل ، أاللثة ، أم خط اللحية ، أم الإكليل ، أم العصابة ، أم التاج ، أم العمامة ، أم القناع ، أم القلنسوة ؟ فأما قدمك فهي التي يعلم الجاهل كما يعلم العالم ، ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلا لنبر ثغر عظيم أو ركاب طريف كريم ، وأما فوك فهو الذي لا ندرى أى الذي تنفوه به أحسن ، وأى الذي يبدو منه أجمل ، الحديث ، أم الشعر ، أم الاحتجاج ، أم الأمر والنهى ، أم التعليم والوصف ؟ . . . وقد علمنا أن القمر هو الذي يضربُ به الأمثال ، ويشبهه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلاً نضواً ، ومعوجاً شخناً^(١) ، وأنت أبدأ قمر بدر فخم غممر ، ثم هومع ذلك يحترق في السرار^(٢) ، ويبتشاءم به في الحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون نفعاً ، كما يكون ضرراً . . . وأنت دائم اليمين ظاهر السعادة ، ثابت الكمال ، شافع النفع ، تكسومن أعراه ، وتكين من أشجبه ، وعلى أنه قد محق حسننه الحاق ، وشأنه الكلف^(٣) ، وليس بذي توقد ولا اشتعال ، ولا خالص البياض ، ولا بمتألى ، ويعلوه القسيم ، ويكسوه ظل الأرض ثم لا يعتريه ذلك إلا عند كماله ، وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصغار من بخار البحار ، وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ، نارى التوقد ، هوائى الذهن ، درى اللون ، روحانى البدن ، وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس وضياءك عارية عند جميع الخلق . . . فكم بين المعير والمستعير ، والمتبين والمتحير ، وبين العالم ومن لا حس فيه ، فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ،

(٣) الكلف : ما يعترى القمر من حمرة

الحسوف . والحاق : آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره .

(١) شخنا : ضامراً . نضوا : مهزولاً .

(٢) السرار : الليالى التي يخفق فيها القمر

فلا يرى .

و يجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبيقاً .

والحق أن الجاحظ بلغ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر في اللغة العربية من سخريته بشخص من الأشخاص ، والطريف أنه يصل إلى ذلك لا عن طريق السب والشتم والقذف وإنما عن طريق ما يسوقه من تهكم وسخرية لاذعة بصاحبه ، فإذا هو يحتكم معه إلى نظرية الأوساط اليونانية يستمد منها متناقضاته ، كما يحتكم إلى قبحه وما يضيقه عليه من هذا الحسن الحادث ، ليستخرج كل ما يمكن من مفارقات فيه ، وإنه ليستعين على ذلك بضروب من الجدل والاحتجاج والحوار ، كما يستعين عليه بضروب من السفسطة والمغالطة والمقابلة بين الحقائق بعضها وبعض ، أو المقابلة بينه وبين أشياء أخرى على نحو ما يصنع به في هذه القطعة من المقابلة بينه وبين القمر هذه المقابلة الساخرة الطريفة التي يعث فيها به ما شاء له هواه ، وهو عبث يستخرجه من التناقض بين قبحه الحقيقي وحسنه الذي ادعاه له ، كما يستخرجه من قصره ، وما ادعاه له من طول وتربيع . ومعنى ذلك أن الجاحظ بنى رسالته على فن المفارقة ، هذا الفن الذي رشت له نظرية الأوساط اليونانية عنده ، وقد أخذ يضم إلى ذلك ضميمات أخرى من أسئلته الكثيرة حتى تم له سخريته من صاحبه ، وإن هذه الأسئلة لتشغل الجزء الأكبر من رسالته ، وانظر إليه يقول :

« يا قَعِيدَ الفلك كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهَيولِ كيف أصبحت ؟ حدِّثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سَيَلَّ العَرَمِ ، ومذكم مات عُرُوجُ ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وما حبس غرابَ نوح ؟ وكم لبثتم في السفينة ؟ ومذكم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف ؟ وأي هذه الأودية أقدم : أنهر بلخ أم النيل أم القرات أم دجلة أم جيحان أم سيحان ؟ . . وخبرني عن هِرْمِسِ أهو إدريس ؟ وعن أرميا أهو الخضر ؟ وعن يحيى بن زكريا أهو إيليا ؟ وعن ذى القرنين أهو الإسكندر ؟ . . وخبرني عن قحطان ألعابر هو أم لإسماعيل ؟ وعن قضاة ألمعد ابن عدنان أم ملكك من حمير ؟ وما القول في هاروت وماروت ؟ وما عداوة ما بين الديك والغراب ؟ . . . وخبرني عن بحار نيطنس وعن قَبَيْسِ وعن الأصم وعن

المظلم وعن جبل الماس وعن قاف وأين كنت عام الجحاف ؟ وأين كان ملك الأزدي من ملك الأشكان ؟ وأين كانا من ملك بني ساسان ؟ وأين كان أبرويز من أنوشروان ؟ وخبرني عن الفراعنة أهم من نسل العمالقة ؟ وعن العمالقة أهم من قوم عاد ؟ . . . وخبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه في أول ما أفرغ في إنائه ، أكان بجزراً أجاجاً استحال عذباً زلالاً أم كان زلالاً عذباً استحال بجزراً ؟ . . وكيف طمع - جعلت فداك - الدهري في مسألة البيضة والدجاجة مع تقادم ميلادك، ومرور الأشياء على بَدَتِكَ وكيف كان بَدءُ أمر البَدِّ في الهند وعبادة الأصنام في الأمم؟ وخبرني ما عنقاء مُعَرَّب وما أبوها وما أمها ؟ وهل خلقت وحدها ، أم من ذكر وأُنثى ؟ ولم يجعلوها عقياً وجعلوها أنثى ؟ . . . وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاورُ النقصان والزيادة إياك ، جوهرك فلكى وتركيبك أرضى ، ففيك طول البقاء ، ومعك دليل الفناء ، فأنت علة للمتضاد وسبب للمتناقى . جعلت فداك قد شاهدت الإنس مذ خلقوا، ورأيت الجنَّ قبل أن يحتجوا . . وشهدت العلل وهي تولد ، والأسباب وهي تصنع . . خبرني ما السحر وما الطلمس ؟ وما صداقة ما بين الخنفساء والعقرب ؟ ولم مُلِّح الحمض ؟ ولم طوِّقت الحمامة ؟ وما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ والبياض ينصبغ ولا يصبغ ؟ وخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك وعن سماعك من أفلاطون ، وما دار في ذلك بينك وبين أرسططاليس . . وخبرني أين كان إقليدس من فيثاغورس ؟ وأين تلامذته من تلامذته ؟ ومن صاحب الشطرنج ؟ ومن صاحب كليلة ودمنة ؟ ولولا أنك - جعلت فداك - مشغول في كل زمان ، والغاية في كل دهر لما أفردتك بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسي في الجواب، ولكنتك قد كنت أذنت في مثلها لهرميس ثم لأفلاطون ثم لأرسططاليس ثم أجبت معبدا الجهنّي وغيتلان الدمشقي وعمرو بن عبيد واصل بن عطاء وإبراهيم بن سيار (النظام) وعلى بن خالد الأمسوّري ، قربة كُفِّتْكَ والناشئ تحت جناحك أحتى بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص وبه وأعنى . . وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طيحال لها ، ولم صار البعير لا مرارة له ، ولم كانت السمكة لا رثة لها . . . ولم قيل أعق من ضب

وأبرئ من هِرّة، وهما جميعاً يأكلان أولادهما، ولم عال الذئبُ أولاد الضبع إذا قُتلت أو ماتت؟ . ولم نامت الأرنب مفتوحة العينين؟ ولم أكل الذئب صاحبه إذا رأى به دمًا؟ .. ولم زعمت أن عمر نوح أطول الأعمار مع قولك : إن جميع الأنبياء قد حذرت من الدجال وأن الدجال إنسان؟ ! » .

ويحاول الجاحظ بهذه الأسئلة وأمثالها أن يقمع مراء أحمد بن عبد الوهاب ويظهر جهله وتعميه ، وهو يخرجها هذا الإخراج الفكه الذى احتال عليه بمناقضاته، وخاصة بما كان من تربيعة ابن عبد الوهاب وتلويره، وقبحه وجماله، وما من ريب فى أنه بلغ من ذلك كل ما كان يريد من سخريه بصاحبه. ونحن لا نُبعد إذا جعلنا الجاحظ إمام المجائين فى العصر العباسى إذ استطاع أن يلعب لعباً واسعاً بما كان من قصر مهجوه وضيق عقله . والطريف أنه أخرج ذلك كله مخرج الجدول والحوار ومسح عليه بالسفسطة والمغالطة ، وهذا اللسان الذى فتقته الفلسفة ، وهذا البيان الذى شحذته الثقافة، وهو يعرض ذلك كله عرض محدث لبق ، ما يزال يخرج من باب إلى باب ومن فكرة إلى فكرة . وهى طريقة عامة فى كتابات الجاحظ بعد مرضه إذ تبدو فى شكل إملاءات ومحاضرات ، وهى لذلك تتصف بالتكرار والترداد والاستطراد كما تتصف بالسماة الأخرى التى تتميز من تقطيع صوتى بديع وتلوين عقلى طريف، وهو ينزلق إلى ذلك كله فى الرسالة التى بين أيدينا - عن طريق فكرة الأوساط فإذا زاد الجسم طولاً، أو نقص قصرًا ، أو اتسع عرضًا ، أصابته مساوى الإفراط والتفريط ، واستطاع الجاحظ أن يمثل بصاحبه وأن يشوّهه ما استطاع من تمثيل وتشويه ، ونراه يعرض ذلك كله فى معارض بيانية ممتازة تجعلنا نؤمن بأنه تفوق فى صنعته على جميع كتّاب عصره ، إذ كان يؤصلها على التلوين العقلى من طرف، والتلوين الصوتى من طرف آخر ، فإذا أساليبه نهض بهذه الثروة العقلية الباهرة، وتلك الموسيقى الرصينة الرائعة ، والحق أن الجاحظ استطاع أن يدمج إدماجاً حسناً بين ثقافته وأسلوبه وأن يخرج من ذلك إلى هذه الصنعة الجاحظية البديعة التى تقوم على التجانس بين اللفظ الموسيقى الرشيق ، والمعنى العقلى الدقيق ، تجانساً يمتع العقل والفكر ، كما يمتع الحس والشعور .